KUNSTRÅDET
Danish Arts Council

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

Twitter: @alqareah
9.3.2015

ميريته بريدس هيله

صيد في نهر الحياة

ترجمة: جمال جمعة

@ketab_n

صيد في نهر الحياة

Fiske i livets flod

ميريته بريدس هيله

Merete Pryds Helle

ترجمة

جمال جمعة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

Twitter: @alqareah

صيد في نهر الحياة

Fiske i livets flod

Twitter: @alqareah

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الدنماركي
Fiske i livets flod
Oversat af Jamal Jumá

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلّف
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع مع الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © by Merete Pryds Helle
All rights reserved

Supported by Danish Arts Agency – Literature Centre

Arabic Copyright © 2012 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0430-3

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

Twitter: @alqareah

جزيرة كابري 1997.27.7

ألقت الصخرة التي كانت وراء مارثا شبكة ظلال عليها ورسمت حدود السماء الزرقاء بخطّ منكسر، غير منتظم. الشمس تدفع بالبحر المضطرب عالياً حول المستحمّين في الخليج الصغير الذي كانت مارثا تتأمله من على كرسيّها الذي كان مدفوعاً إلى المنتصف تحت نتوء صخرة. خطوط من نار بيضاء تتموّج على الأظهر، الأذرع والصدور، الأصوات كانت تنسج نفسها من على مقاعد البلاج ممتزجة مع همهمة رتيبة من الأمواج. الظلال، التي تجلس فيها، كانت رطبة ومالحة.

كانت الصخرة ناتئة عن جبل يتكئ على البحر، إضافة إلى خطوط الزبد النحيلة على الأمواج التي كانت تجري في تشوّش نحو جميع الاتجاهات في الخليج الصغير المليء بالحصى. سقطت ظلالها على بعض السابحين، شقّت أكتافهم ووجوههم عن الضوء المتلألئ الذي كان يقذف بالأجساد الأخرى هنا وهناك. كانت الصخرة تميل أيضاً على ظهور الصيّادين الذين برزوا للعيان من دون سابق إنذار في جسد الماء، الأشواك الحمر المضيئة لقنافذ البحر المنهكة، حيث الماء المالح يتدفق عليها. كانت قنافذ البحر تغرس نفسها بثبات، وكأنّها زوائد جماديّة، رجّات صغيرة متنامية يرنّ صداها على الأحجار.

Twitter: @alqareah

إقشعرّت مارثا من الرطوبة، رطوبة آلاف السنين من غير شمس، ليس سوى ساقها تمتدّ وتصطلي حول الكاحل، القدم كانت مغموسة في البحر مثل قفا سمكة ملساء، لامعة.

كانت تتأمّل ثلاثة من السبّاحين المضطربي الضوء، كانوا أفراد عائلتها، صبية صغيرة، فتى شاب وامرأة في متوسط العمر في رداء عوم أحمر. على رأس المرأة ثمّة قبّعة سباحة بيضاء مع إكليل من زهور المَرْغَريتا. كانت تقف فوق صخرة تحت الماء، لذلك لم يبرز سوى كتفيها فوق سطح الماء، وفيما كان الآخرون يعومون كانت هي تتفحّص الخطّ الذي رسمته صخرة الجبل على حدود السماء الزرقاء، وتحدّثت في ثبات، من دون انقطاع، عن الصباح وإزعاجاته، عن الشراشف الرطبة المبلّلة بالعرق، والتي يتوجّب عليها غسلها قبل الإفطار، عن البيض الذي سُلِق أطول من اللازم، وكان عليها حفظه لوجبة الغداء التي كانت الركن القادم الذي يتوجّب عليها تدبيره في يومها، والذي سيتحلّق حوله الجميع بعد السباحة.

كانت المرأة خالة مارثا، كاما. الكلمات تتدفّق من جسد كاما الغليظ، الذي كان نابتاً برسوخ في الماء، تموّجاتها تصنع سياجاً يحيط بهم جميعاً، مارثا، شقيقها آدم، وأختها نانا التي كانت تسبح من دون أن تصغي لما تقوله كاما. سياج يحميهم وينغلق عليهم. سياج شبيه بصخرة من كلمات.

عالياً فوق الخليج الصغير، على شرفة في المنزل المستأجر، جلس بيتر، والد الأخوة الثلاثة. كان طويلاً ونحيلاً. مدبّب الأنف،

Twitter: @alqareah

وعيناه تقبعان عميقاً في محجرين غائرين، حيث يبزغ لون قهوائيّ، برتقاليّ تقريباً من هناك، الأمر الذي يجعل من وجهه جذّاباً بشكل فريد. حينما يجلس عند طاولة الشرفة يتوجّب عليه أن يثني نفسه ويستلقي عليها تقريباً حين يمسك بكوب قهوته، أو رسالة مع نظارته، وفيما هو يقرأ الرسالة يمطّ بساقيه الى أمام وينحني في الى الوراء على مقعده، الذي كان مثله مثل الطاولة، صغيراً جدّاً بالقياس الى جسده.

قرأ الرسالة بانزعاج بائن. كان مرسلاً من أحد تلامذته المتعجرفين، الذي يحاول مثل الآخرين من قبله أن يعرض نقاط الضعف في نظرية نشوء الكتابة في بلاد ما بين النهرين القديمة، التي صاغها بيتر. يعتقد بيتر، كما ويبني نظريته على إكتشافات لا حصر لها، أنّ إختراع الكتابة كان عمل شخص واحد. هذا ما كتبه في أطروحته، وفي كتابه الذي حقّق رواجاً بصورة مدهشة.

لكن في كلّ جيل من التلاميذ ثمّة أحصنة عنيدة، بعضهم يطرح بصخب فرضيّاته الشخصيّة متأثراً بموضات النظريّات. إذن لن يكون بالإمكان أن ترى إكتشافاً كبيراً مثل هذا إلاّ إنبثاقاً كبيراً لروح جماعيّة إشترطت ظروفها المادّية إسلوباً للإتصال يتخطّى الكلمة المنطوقة. إذن كانت الكتابة إمتداداً ضروريّاً لجسد الإنسان الذي كان يتنقّل على ساقين. لذلك كان الإنتصاب مصادفة، غاية نهائيّة لسلسلة من المصادفات كرّت عبر القرون. أصغى بيتر بأدب إليهم، قرأ أطاريحهم ومنحهم أوطأ الدرجات التي كان بمقدوره منحها.

كذلك هذا التلميذ، ذو الإسم السخيف بيتروس، يدّعي أن له

Twitter: @alqareah

نظريّة حول أصل الكتابة تفنّد عمل بيتر. إنّه كبقية الآخرين، قبيح ومتعنّت. لكن ما يقلق بيتر أن بيتروس هذا صرّح بأّنه قد رأى سلسلة ما زالت مجهولة لحدّ الآن من رقم الكتابة الطينيّة، من نمط تلك الألواح الطينيّة المفخورة، التي توجد في داخلها رموز طينيّة تفيد في بلاغات بسيطة، وكأغلب الآخرين كان متفقاً على إنها أسلاف لحروف الكتابة.

لا يريد بيتروس أن يتعمّق بالتفاصيل، كما كتب في الرسالة، لأنّ ذلك كان بالتأكيد إكتشافه هو، وبالرغم من أنّه لم يكن راغباً في تحدّي منزلة بيتر. لكن هذا هو تماماً ما تريده أيّها الديك المتباهي، فكّر بيتر. سيكون على بيتروس نشر مقال صغير في مجلة دوريّة قبل أن يشرك بيتر في مصادره الأساسية.

أمر سخيف، فكّر بيتر، لكنّه مزعج. يكاد أن يكون الوقت متأخراً عليه فيما إذا ظهرت برزت كشوفات جديدة. عليه ألاّ يتذبذب: الكتابة كانت من صنع إنسان واحد.

إنهى بيتر شرب قهوته ودسّ الرسالة في جيبه. نهض من مكانه واسند نفسه على الدرابزين المعدنيّ محاولاً على يلمح الخليج الذي تتلألأ مياهه الزرقاء بين أشجار الصنوبر والسرو. يتوجب عليهم التهيّؤ للعودة إلى البيت.

الهواء كان سجّادة حرير رقيق تهتزّ من أعالي الخليج. كانت نانا فِتات خبز نُفِضَ عن السجادة في غمرة الفوضى، سقطت مصادفة في الماء، حيث حاولت العوم باتجاه اليابسة بطريقة سريعة، خرقاء. على اليابسة تنهض الصخرة بأخاديدها العموديّة

Twitter: @alqareah

مثل خرائب لدعائم هيكل عملاق. ثمّة مغارة متعذر الوصول إليها تقع في أعالي الجدار الشاهق الذي يشكّل العينين والفم في وجه الصخرة. إنتفضت نانا وسبحت باتجاه آدم الذي كان يطفو على ظهره في مدخل الخليج في الماء الأزرق المضيء. تأملت بشرته في الماء، ملساء متلألئة، شعره المبلّل الأشقر المقصوص حتى وجهه كان يتأرجح مثل سنابل القمح على المياه. نانا تعتقد أنها مركّبة من رقائق لحاء شجر رهيفة مضغوطة على بعضها بخشونة، والشيء الوحيد الذي تستطيعه في تفكيرها كان أمراً لا جدوى منه، وهو إعادة تنظيم تلك الرقائق أثناء السباحة، وكانت تتأمّل أخيها برغبة مائيّة، رصينة.

آدم كان في عالم آخر. كان يستشعر عضلاته تحت الجلد وضغط الماء على العضلات، وكيف كان الماء يخبط ويرفعه ويطبق بكثافة على جسده حين يغطس.

أنا أعوم والمياه زرقاء، فكّر هو، وهذا يكفي. لم يكن يصغي لصوت كاما.

دعها تهذر، فكّر بذلك وبأنّ عليه الإنطلاق مع جيوفاني بالزورق في وقت مبكّر غداً لصيد الأخطبوط. مخر زورق جيوفاني البحر مجتازاً الخليج باتجاه الصخور الشاهقة البعيدة، فأبصر آدم جيوفاني وهو يغطس الجرار الفارغة في الماء. بعد قليل ستتشمشم الأخطبوطات طريقها في الأعماق وتحشر نفسها في الجرار الخاوية معتقدة أنها مغارات جديدة، آمنة.

لم يلحظ آدم نظرة نانا. كان مشغولاً بالفتيان الذين يستحمّون

Twitter: @alqareah

بالشمس فوق الصخور، السيقان المنفرجة قليلاً، المنشفة المهجورة المتألقة بالألوان، التي كان صاحبها يتكئ على السلّم الحديدي الموصل إلى البحر، ويداه ممدودتان أمام جسده، فيما كانت العضلات مشدودة قليلاً. إستغرق آدم في تأمله من دون أن يلحظ ذلك أحد.

تبعه جيوفاني في ذلك المساء، كان آدم قد خرج يتنزّه على مماشي المتنزّه خلف مدينة كابري. هرول خارجاً من البار لأنّ الحرارة كانت شديدة هناك، كان قد شرب، والآن يحسّ بالدوار وعليه أن يستنشق هواء نقيّاً، لكن الهواء في المتنزّه كان خانقاً بالزهور التي تفوح بروائح العتمة، فواصل آدم سيره نازلاً باتجاه الماء. توقّف حينما خبط جيوفاني على ظهره. كان جالسين كلاً على طاولته في البار. آدم يشرب وجيوفاني يلعب الورق مع فتية إيطاليين آخرين.

– أنا أعرف ما الذي تريده، قال جيوفاني. – أنا صديق.

حينما أصبحا أصدقاء. كان على آدم قضاء الصيف كله في كابري. تحدّثا عن أماكن وقوف الصيادين. تعلّم آدم السباحة وحربة في يده وأحسّ بالسمكة وهي ترتعش حينما يخترقها برمحه. تناقشا حول من سيقود العربة على الطريق المتعرّج من الخليج ويجلب البنزين لمحرّك الزورق، عن الزوارق الأخرى. شعرا بالإنتهاك حينما رمت إحدى السفن نفاياتها من على سطح المركب، مما جعلها تلتصق بجلودهم عندما يقفزان الى الماء. سبحا معاً عبر تجويف تحت سطح الماء الى داخل المغارة الزرقاء، كان التجويف

Twitter: @alqareah

الذي يشبه العين يخترقه ضوء الشمس من تحت الماء، فكانت تلك الشعلة الزرقاء تضيء سقف المغارة. وقفا معاً فوق منصّة صخريّة في المغارة وتصوّرا عربدة تيبريوس في ذات الموضع، وذات الزمان الذي كان من النأي بما لا يمكن إمساكه، رغم إستطاعة المكان ذلك. حيث رهبة البشر المذبوحين تدلّت في الهواء مثل حافز مفاجيء للخروج، سريعاً، باتجاه المنفذ تحت الماء، حيث كشطا نفسيهما في الأذرع والسيقان في لهفة باردة للهروب بعيداً، خارجاً نحو الضوء، الشمس، الصخور، الأشياء التي في زمنها اللا نهائيّ تنصهر مع بعضها الى لحظة آنٍ محتومة وراسخة، دون قرابين ولا حمّامات دم.

سبح آدم. رشّ ماءاً على كاما وسخر من إكليل الزهور الذي كان على قبعتها.

- لا تكن صبانيّاً، قالت نانا. - لا تكن هكذا!

لا تقفي هناك، فكّرت هي، مثل طفل أعزل معلّق في الهواء، سهم منطلق دون إرادة منه، متجهاً لضرب هدف لا يعرفه. إنها مجازفة كبيرة، الكثير من ضوء الشمس، الكثير الهذيان المحموم.

- لا تكن الآن صبيانيّاً جدّاً، أعادت نانا كلامها وحدّقت بحدّة الى آدم.

كان صوتها رسميّاً، موبّخاً. آدم، الطفل الأوّل، الابن. كان يبدو أنّه وضع في عالم خال من الشكّ، متهوّر. كم تودّ نانا لو أنها كانت مثله. تسلّقت السلّم الحديدي عالياً وجلبت منشفة كاما وتركت جسدها يجف في الشمس، فيما كانت كاما تعوم ببطء ملوكيّ باتجاه السلّم، حيث نضت قبّعة السباحة عنها ونفضت

Twitter: @alqareah

شعرها الناريّ الأحمر ثم تسلّقت الى الأعلى وتناولت المنشفة من نانا.

- شكراً لك.

كان ذلك هو ما يجعل نانا حيّة. أن يشكرها أحد، أن تكون مرئيّة، مضاءة من شخص آخر.

هنالك من يحتاجني، فكّرت هي، وتسابقت ضربات قلبها مع الفكرة. لا يمكنهم تدبير شيء من دوني.

ثملة بكلمات كاما أحضرت نانا محفظتها وتقافزت فوق البرزخ الرمليّ لكي لا تحترق قدماها وابتاعت بوظة للجميع. كانت طيراً يحلّق فوق جميع المستحمّين بالشمس، يطير ويهبط ثم يصعد من جديد. كانت طيراً يحط أمام كاما، بالبوظة الملفوفة بورق رقيق، مطقطق.

- لا أظنّك تفكّرين بتناول البوظة قبل الغداء مباشرة، هتفت كاما مرتاعة وتركت يدها تنزلق فوق ثوب السباحة الأحمر وبطنها المدوّرة. نهض آدم من دون أن يتفوّه بكلمة وتنازل بوظته وأكلها معطياً ظهره لهم.

مارثا قالت شكراً لا أريد. تناول آدم بوظتها والتهمها أيضاً. لكن آدم لا يشكر أحداً أبداً.

إنهارت نانا على الأرض. لقد رفضوا التضحية التي تبرّر وجودها. جسد البحر العميق الزرقة يلتوي حول الجزيرة. إقشعرّت نانا من البرودة. تأمّلت مارثا التي كانت تقرأ رواية بوليسيّة في الظلال تحت نتوء الصخرة. إنهم جميعاً في غاية البساطة. شفّافين. فكّرت بإنّ عليها الذهاب الى البيت فوراً لكنّهارغم ذلك إنتظرت

Twitter: @alqareah

لحين تهيئ الآخرين.

فيما كانت كاما تقلع بدلة العوم عنها تحت برنس حمّام طويل مزهّر فكّرت بإختها، بروزا، أمّ الأولاد التي توفّيت. كعادتها حين تفكّر بإختها افتتحت أفكارها بحسرة، أمر تعيس أن تموت روزا مخلّفة ثلاثة أطفال صغار، أثناء ولادة نانا. أمر تعيس. أفكار تجلب الحسرات. محزن جداً أن على روزا أن تموت مخلّفة زوجها الذي كان وسيماً وذكيّاً. لقد حملت روزا أجمل الأسماء، وكانت تستحقه، كما إستحقت كاما إسمها الذي تحمله. لا شيء تشتركان به سوى الشعر الأحمر الرواندي اللون.

إعتقدت كاما أنّها كانت تتحدّث مع بيتر أفضل مما كانت روزا تفعل. لقد كانت هي من تعرّفت عليه. ذهبت إلى محاضرة في علم آثار الشرق الأدنى، ومثل بقية الفتيات وقعت في غرامه بطريقة أكثر من الحبّ، يكون فيها المدرّس إشباعاً للرغبة بعد المعرفة، حيث الخطّ على أنفه والتجاعيد المستديرة حول فمه تتوحّد مع كلماته التي كانت تبدو أذكى مما يقوله الآخرون. كان يبدو عليه أنه مهتمّاً بكاما. إمتدح بحثاً كتبته وأبدى إهتماماً خاصّاً بسلسلة من الصور الفوتوغرافية التي التقطتها لمجموعة مجسّمات بسيطة ذات عيون واسعة، حيث نجحت في قنص المهارة الفنّية التي امتلكها الصانع لصياغة تلك البساطة. إعتقدت أنّ بيتر كان يبادلها المشاعر فدعته الى حفلة عيد ميلادها، فكّرت بعناية بشأن ذلك، كذلك دعت الطلبة الآخرين في صفّها لكي لا يبدو الأمر تطفّلاً ويلفت الإنتباه. لكن روزا كانت هناك.

ليس هنالك الكثير لقوله سوى أنه لأمر محزن أن تموت

Twitter: @alqareah

مخلّفة زوجها وأطفالها. بيتر واصل التربيت بودّية على كتفيّ كاما، كذلك بعد زواجه من روزا. وظنّت كاما أنّهما يتحدّثان أفضل مع بعضهما. كانت تدرك ما كان يتحدث عنها. روزا كانت فقط تنظر إليه وتضحك وتقول أن من الصعب عليهاالإلمام بالموضوع، بالإضافة الى أنها ترى الحاضر أكثر إثارة للإهتمام.

- وهذا بالتأكيد ما لا يعرف بيتر عنه الكثير، أضافت وضحكت من جديد.

كان بودّ كاما خنقها حينما تضحك تلك الضحكة الغبيّة. لم تكن روزا تفهم شيئاً. لكن أسوأ ما في الأمر هو أنّ بيتر كان غير مكترث لقلّة إهتمام روزا. نظر إليها برأس مائل وقال أنهما يكملان بعضهما إذن بشكل رائع. وكانت روزا جميلة. أنجبت الأطفال وظلّت محافظة على جمالها. أملت كاما بأنها ستنتفخ، أنها ستتجهّم وتبرز لها خطوط تحت العينين، لعلّ ذلك سيفتح عيني بيتر على غبائها وسطحيتها. كان يقول بأنّ روزا تزداد جمالاً مع كلّ طفل. وبإنّها إذا فقط إعتنت بشؤون الحاضر سيتولّى هو أمر العناية بالماضي بنفسه. توجّب على كاما أن توافقه على غير إرادتها. بدا وكأنّ الجمال الذي لا تستحقه روزا يزداد، الى أن ماتت.

كانت كاما في البيت مع بيتر والولدين الكبيرين، اللذين لم يكونا بهذا الكبر بعد، حينما رنّ جرس الهاتف وقفزوا من أماكنهما. إلتقط بيتر سمّاعة الهاتف واصغى. بعدها تناول ملابسه وأغلق الباب، ولم يمكن لروزا أن تعرف ما الذي حدث قبل أن يعود

Twitter: @alqareah

الى المنزل في تاكسي مع نانا وكيس مسحوق الحليب وزجاجة الرضاعة التي أعطتها الممرضة له.

– لقد رحلتْ، قال بيتر.

قضى بقية الليلة وهو يجول في التاكسي، لكنّ كاما جلست على السرير ونانا في ذراعيها. نامت نانا الأسابيع الأولى وكأنّها كانت لا تجرؤ على طلب شيء من أحد. إتصل بيتر في الصباح من أحد تلفونات الشوارع وسأل فيما إذا كانت كاما ترغب بالبقاء معه والمساعدة في العناية بالأطفال. لم يكن بالأحرى يعرف ما عليه أن يفعل، وأنّه ستمرّ بضعة أيّام قبل أن يعود إلى البيت.

– نعم، بالتأكيد، قالت له. لم تطلب منه حتى العودة رغم أنّ الطفلين ظلاّ مسمّرين عند النافذة مترقبين قدوم أحد ما، والذي لم يكن كاما. الأطفال، بأفواههم الممطّقة وبشرتهم الصافية وعيونهم التي كانت تفتّش في كلّ موضع. حينما يتعلّق الأمر بموت روزا، رغم كونه مؤلماً، فإنّ كاما رغم شكلها، رغم عوزها للجمال، قد نالت كلّ شيء. فلا أحد يستطيع جعلها تصدّق أن الجمال الداخلي هو الذي يقرّر في النهاية.

إنتهت كاما من إرتداء ملابسها ونزعت برنس الحمّام عنها. لم يرها أحد عارية، وهذا ما تحبّه كاما. لقد حصلت على رجل من دون أن يتوجب عليها أن إستعراض نفسها بشكل مشوّه وغير أنوثيّ مثلما كانت أمها تقول عنها ذلك. عليها ألاّ تستدرج لذلك. تلك

Twitter: @alqareah

السنين التي عاشوا فيها في الشرق الأوسط، حيث كانت تكسو جسمها بفساتين مهلهلة، مع كاميرات وحقائب مع أفلام حول الأوراك، كانت تشعر بارتياح كبير. لفّت كاما منشفتها حول قبعة الإستحمام ووضعتها تحت ذراعها. عليهم الذهاب. ينبغي عليهم الصعود عائدين الى المنزل، الى بيتر، وتناول الغداء. عليها أن تفكّر بعمل شيء مع البيض. لكنها حين فكّرت بذلك جذبت حسرة طويلة، كم هو محزن أن تموت روزا وهي في عزّ الشباب.

Twitter: @alqareah

القدم في البحر. القدم سمكة. لكن عليها الصعود. النزول وتناول الغداء في الشرفة، دون نوم. إنها تودّ أن تستلقي في الظلال، تنحني على الملاءة وتنام. مغطّاة بطبقة رقيقة من العرق تتمدّد حين تكون مارثا تحلم. تحدّق في أحد أصابع قدميها. حين تكون نائمة تسقط القدم خارج السرير وتنجذب باتجاه الأرضيّة، ومارثا تحلم أنّها سمكة تسقط خلال الماء، فيما هي تنظر حولها، لأنّها من الثقل بما لا يرفعه إنعدام الوزن. سمكة ثقيلة، صفراء تحفر طريقها عبر الصخرة تحت الماء. قشرة بيضة في الماء. الصخرة التي أسفل حوض الماء الثقيل، الذي يفرغ على الجزيرة حينما تعصف الرياح. إستيقظت مارثا مع طرقات قدمها الى السرير وصياح كاما أن عليها كذلك النزول لتناول الغداء.

Twitter: @alqareah

بعد الغداء على الشرفة مضى بيتر الى غرفته. فكّر بمدينة أور، فكّر بسنة 3550 ق. م كحجر مستدير، وفي داخل الحجر كانت حروف الكتابة الأولى. فكّر برجل. مارثا كانت دوماً تسأل: لم لا تكون امرأة؟ فكان بيتر يجيب متردّداً: بيييه، بلى، لم لا؟ لكنّه كان يفكّر برجل. ومثل جرح ينبثق تدفّق نهر الكلمات من بين يدي هذا الرجل،حرفاً بعد حرفٍ. هكذا كان، كرّر بيتر كلامه، هكذا كان.

أور. سومر. تلّ المقيّر. الأسماء وحدها ما زالت تبعث بضوء موخز الى أعماق عموده الفقريّ، رغم مرور سنين عديدة. الصور المتغيّرة، الأسماء التي لفّت نفسها حولها، ومع مرور الزمن تراكمت في داخله. أصبح بإمكانه في أي وقت يشاء أن يمدّ يده ويصل لمشاعر الوقوف في طريق حجريّ في البلاد التي كانت تسمّى ما بين النهرين، فيما كانت روحه ترتفع باتجاه سماء الصحراء المرصوفة بذات الأحجار التي رصف فيها الطريق، وتلك السنوات التي رصفتها رمال الصحراء منذ زمن الحضارة الأوّل، كانت مُلكه، تنثني مثل هلال في راحة يده.

ينبغي طرح الرسالة بيتروس خارجاً. لا يمكنه أن يخطئ. لا ينبغي أن يتجاهله أحد، نعم، ولكي يكون مباشراً، أن يتجاوزه تلميذ حديث الإصابة بحبّ الشباب. حياته، عمله معلّقان بتلك المواد

Twitter: @alqareah

التي كانت بين يديه، تلك اللمسة التي إستدعت شعوره بالمكان، في تلك الوهلة التي تشكّل فيها الطين على يد أخرى.

أطبق بيتر مصراعي النافذة ليحجب شمس الظهيرة سامحاً فقط لخطوط ضوء قليلة، القليل من الظهيرة فقط، بالولوج الى الغرفة. المنزل كان هادئاً، باستثناء قعقعات متقطّعة تنبعث من آلة مارثا الكاتبة. شرع بيتر بالبحث عن كتلة صلصال غير مفتوحة يحتفظ بها في صندوق رحلاته الذي يبلغ طوله مترين من الخشب الثقيل ويمكن نصبه عموديّاً ثمّ فتحه. كان مليئاً بأدراج مسحوبة ورفوف وخزانات صغيرة، مكتظّة بالأوراق، آلات عمل، أدوات كتابة، جهاز موسيقي صغير، إضافة الى بضعة أدراج في الأسفل لمجموعة من الملابس الخفيفة. عثر بيتر على ما يحتاجه. كان صندوق الرحلات أثمن مقتنياته. تبعه من مكان الى مكان لمدة 35 عاماً، منذ أن ابتاعه في سوق البصرة أثناء قيامه بأولى حفرياته. حياته شبيهة بحياة بدويّ، فقد كان غالباً بين صفوف البدو، لكنّه لم يشعر أبداً بأنّه مثلهم. كان له منزله وعاداته التي يحملها معه في حقيبته الكبيرة الخرقاء.

عثر بيتر على كتلة الطين خلف سلك النحاس الملفوف وتناوله بيده. إنّها لفكرة مقلقة أن يكون قد عُثر على صندوق مليء بكتل شبيهة بهذه لم يسبق له رؤيتها. شعر بالتردّد، لكن هل لديه سبب للتردّد؟ يمكن ببساطة أن يكون بيتروس هو المخطيء. ما لم يستسيغه هو إشارة بيتروس الى أن مئات من كتل الطين كانت من الحداثة بشكل ينفي كونها مصدر إلهام للكتابة. هل هذا حقيقة، أم أن بيتروس يكذب؟ أبصر بيتر نفسه يختفي في أخدود

Twitter: @alqareah

في تاريخ الآثاريين. ربمّا ستبقى ملاحظة بسيطة عنه، أنّه كان واحداً من أولئك الذين أخطأوا، مثلما قد قرأ بنفسه العديد من الجمل الثانويّة عن الآخرين الذين أخطأوا. لن يكون هو الوحيد منهم ولا الأخير، لكن ذلك لم يكن ليعزّيه.

لم يكن بيتر في العراق منذ حرب الخليج. كما أنّه لا يدري أن كان سيعود الى هناك. كان بمقدوره أن يستخفّ بالتورطّات السياسيّة لكن ذلك لن يبعدها. لم يكن مروّعاً أن يكون لديه أشياء كثيرة أخرى يهتمّ بها. الى أن برزت مزاعم كونه قد أخطأ. لن يمكنه الاستمرار بالحياة من دون أن يعرف ماذا يوجد في سرداب المتحف. إنه ما يزال شابّاً. كذلك رغم أنّ بإمكانه سماع مارثا وهي تكتب أطروحتها التي تدور حول الى أيّ مدى كانت الأبراج الحجريّة في المعابد، المسمّاة بالزقّورات، تمثيلاً للجبال. إنّها رغم كلّ شيء فتاة فقط. ماذا تراها ستقول عن رسالة بيتروس؟

كان أمراً غير مفهوم بالنسبة لبيتر أن تختار مارثا ذات إختصاصه. رغم أن الأمر كان كذلك حين كان الأبناء صغاراً جدّاً، وكان آدم ونانا يلهوان داخلاً في الظلال مع كاما، ومارثا كانت تتبعه بفهما الصغير المزموم والجاروف في يدها. ولم يكن ليجرؤ أحد، حتى الأطفال العرب، على الضحك منها حينما كانت تجثو على ركبتيها بين جماعة الحافرين وتحرّر بحذر الطين والعظام من سجن التراب. لو أنّها فقط إختارت الأنثربولوجيا أو وجّهت إهتمامها الى حقبة زمنيّة أخرى. لكن كلاّ، لقد تبعث خطوات بيتر تماماً مثلما فعلت حرفيّاً حينما كانت صغيرة، وكان بيتر مثل كلب

Twitter: @alqareah

مبلّل وعليه أن يهزّ نفسه لنفض الماء عنه.

عليه أن يرى الإكتشاف. لا يمكنه البقاء جالساً ويداه في أحضانه تاركاً مزاعم بيتروس معلّقة في الهواء دون جواب. ينبغي عليهم الذهاب من جديد.

Twitter: @alqareah

الجبل هو شموخ الأفق، فكّرت مارثا. إنّه علاقة بين السماء والحجر، الحجر والصخرة التي تحلم بالتبخّر، الغيوم التي تقطر بين قمم الجبال ورغبتها في أن تكون راسخة، لا تُزحزح.

بين الغيمة والحجر يجد الإنسان نفسه، الناس الذين شادوا معابد الجبال، الزقّورات، الذين يرغبون برفع أرض الصحراء المسطّحة عالياً لكي تكون شبيهة بسلسلة جبال صغيرة، على ذراها يقبع مسكن الآلهة.

كانوا سيعشقون جبال الأطلس، فكّرت مارثا. كانوا سيعبدون جبل كليمنجارو الذي ينتصب من دون سبب منظور وسط مشهد مسطّح، مغموراً بالثلج مثل ملاكٍ، إله أبيض فوق القمّة. لكن أكان السومريّون، الذين أشادوا الزقّوراتِ الأولى قد شاهدوا كليمنجارو؟ أو جبال الأطلس؟ هل كانت تلك طموحهم السماويّ، المحسود وقلّدوه في أبراجهم؟

أم كان السومرّيون، كما يعتقد الكثيرون، قد هاجروا طويلاً من جهة الشرق، ربّما من الهند، ماضين فوق الجبال الكرديّة ربّما، وحاولوا إعادة تشييد جبال الوطن في داخل البلاد الصغيرة الخصبة بين الصحراء والنهر؟

لم يعد بإمكان مارثا تحمّل جهلها أكثر. يجب أن تجد شيئاً في موادّها يمكن أن يشكّل صورة متكاملة من غير فراغات. مثل تحرٍّ في رواية بوليسيّة حاولت تركيب نظريّة تكون فيها كلّ الأجزاء

Twitter: @alqareah

متناسقة. يجب أن يضيف الحلّ الذي تعمل عليه مارثا الوقائع الناقصة الى الصورة متماسكة لا تقبل الدحض.

يمكن أيضاً أن تكون، تواصل مارثا سلسلة أفكارها، جبال المعابد، أبراج الآلهة التي أشادها البشر، إعلاناً عن خصائص الإنسان في العالم، بكونه مرتبطاً بالأرض بحكم ثقل جسده وفي نفس الوقت محلّقاً في فكره، مثل الزقّورة الثقيلة والراسخة في القاعدة وخفيفة ومفتوحة للريح من أعلاها.

هنا مرقت لحظة تصوّرتها مارثا لنفسها، كيف ستكون واقفة وشهادة تخرّجها في يدها في حديقة المعهد، مرتدية فستانها الأحمر فيما الريح تهبّ بين ساقيها. الفرق بين أن تكون ساكناً ومتحرّكاً. الفرق بين أن تكون مستوطناً أو بدويّاً مهاجراً.

تخيّلت مارثا السومريّين كشعب كان مهاجراً في البداية وبعد ذلك ضرب رحاله في الأرض المنبسطة وأشاد جبلاً لتمزيق قوّة إغواء الأفق، شعب يشيّد أوتاداً لخيمة سماء الصحراء الزرقاء.

لو كانت قبة السماء خيمة لما احتاج المرء للانتقال. خيمة مرصّعة بالنجوم التي تهاجر مع الليل، طوال العام.

ربّما كانوا كبداةٍ ينظرون الى النجوم كظلالهم الخاصّة المضيئة التي تهاجر عبر ليل الصحراء محاطة بالحيوانات. إذن فالأمر واضح، فإنّهم حين يستقرئون هجرات النجوم فلأنها تشابههم، ليس فقط جسديّاً عبر الرمال، وإنّما عبر الحياة، مع الزمن الممتدّ كرمال الصحراء.

هل سيقدّم ذلك معنى؟ ساءلت مارثا نفسها. ينبغي عليها الإلتزام بالوقائع. يجب أن تصوغ ما كان معرفة أكيدة ولا تضيّع

Twitter: @alqareah

نفسها التخمينات.

تخيّل السومريّون أن السماء كانت من قصدير، وأين يمكنها تضمين ذلك؟ تستطيع أن تكتب خاتمة للأطروحة تتضمّن تأمّلاتها. مع كل ما لم تستطع التوقّف عن تصوّره خلال كتابتها لها. سيرفع بيتر زوايا فمه الى أعلى فتبرز التجاعيد المستديرة حول فمه، التي تكرهها مارثا، مبدياً استنكاره لشيء ما لكن لن يقوله علناً.

هل يعرف السومريّون شخصيّاً لِمَ شيّدوا الزقّورات؟ ماذا كانوا يفكّرون حين يعثرون على عظام وقطع فخّار تحت الأرض؟ لأنّهم، فكّرت مارثا، لا يمتلكون بالطبع إحساساً بوجود ماضٍ، أن يكون هنالك عصر قديم مقارنةً بنا. لقد بنوا وكافحوا في حاضر ديناميكيّ. لا يمكنهم تخيّل سوى القليل عنّا، مثلما نتخيل نحن كيف كان الإنسان يعيش قبل 6000 عام.

إلتقطت مارثا قصعة ورق جديدة ووضعتها في الآلة الكاتبة. سقط الضوء في تشعّبات على الجدار عبر ثقب مصراع النافذة وكانت قد أشعلت المصباح فوق طاولة الكتابة. يتوجّب عليها إبعاد الشمس والحرّارة مسافة عنها. ينبغي أن تمسك بزمام أفكارها المشتّتة وتركّز على كتابة الملاحظات المتعلّقة بالموضوع. إتكأت مارثا على طاولة الكتابة وأراحت خدّها على الآلة الكاتبة. أطبقت عينيها وسرعان ما استغرقت في النوم وحلمت أنّ ثمّة تيّار بطيء، مثل رمل في ساعة رمليّة، ينثر الماعز من أعالي السماء.

Twitter: @alqareah

جلس آدم وكاما في أحضان بعضهما على طاولة المطبخ يعدّان الخضار لوجبة العشاء. برنارد صديق بيتر الذي استأجر غرفة في فندق مجاور، وجيوفاني، قدما لتناول العشاء، وآدم وكاما اللذان كانا بمثابة حيوانات العائلة الأليفة فتحا مصراعي النافذة لحرّ الظهيرة. تدفّقت الشمس فوقهما، على الأثاث وأدوات المطبخ وكأنها ستهشم الأشياء.

بالنسبة لكاما فقد كانت تفكّر بشيء آخر، فيما كانت يداها تنظّف، تقشّر وتقطّع، بسرعة وتناسق، وليس سوى بضع جمل عمليّة متفرّقة يتبادلونها خلال ذلك.

- ناولني السكّين الآن، تقول كاما.

- دعونا نضع بصلاً أكثر، يقول آدم.

جملهم المتفرّقة كانت تتناهى الى مسامع نانا التي كانت تضطجع في غرفتها المجاورة للمطبخ، وكانت مستيقظة تماماً.

إذا نهضتُ وخرجت من الغرفة، فكّرت نانا، فستبدأ كاما سريعاً بالحديث وتضعني تحت رحمة صوتها. فقط آدم يمكنها الذي يمكنها أن تكون صامتة معه.

الطاولة وخزانة المطبخ محدودبة مثل ظلال أشياء هائلة، كانت مثل مربع أسود فوق الجدار. أغلقت نانا أولاً مصراع النافذة الأعلى ثم بعده الأسفل، مع ذلك ظلّت الشمس تنعكس في الغرفة.

الآخرون يجلسون فقط في الظلال لكي لا يصيبهم الصداع

Twitter: @alqareah

ولا تكتوي جلودهم، فكّرت نانا بمرارة. ليس الظلال بالنسبة لهم سوى مقدار أقلّ من الشمس، وليس تلك الحزمة البيضاء من سيقان النباتات، التي هي أنا. والآن هذا.

بسطت نانا راحة يدها فوق بطنها وحاولت أن تتحسّس فيما إذا كانت تبدو أشدّ تصلّباً، سيقان صغيرة، وأذرع ورأس وذيل. لكنّها لم تحسّ بأيّ اختلاف. ليس من طباعها أن تنسى نفسها. لكنّه كان عيد ميلاد آدم وكانوا قد جلسوا طويلاً في مقهى الميدان وشربوا، وفي النهاية ذهبت هي مع برنارد الى البيت، لأنّه كان قد سألها ذلك بحكم العادة، ففكرت هي: لماذا الآن، لقد إعتدتُ على قول لا؟

كان ذلك لأنّها كانت دائماً تظنّ أنّه كبير السنّ. يداه ارتعشتا من التلهّف حينما نزع ثيابها، وفوق السرير كان مصراع الكوّة مفتوحاً ليكون باستطاعتها رؤية السماء، وقد فعلت ذلك. طريقته بأن يكون لطيفاً ومحترساً في حركاته منحها الشعور بأن تكون نائية عن يديه، عن جسده. ماذا سيقول الآن؟ ليس لبرنارد أطفال. لقد كانت حياته التي ولجت في دواخلها المعتمة، حيث لا مكان للحياة، لبزرة الخليّة المضيئة، المبلبِلة، التي ستدفعها للخروج عن ذاتها. ينبغي التخلّص منها. كيف ستمتلك القوّة إذن للإمساك بسيقان النباتات البيضاء، منفرجات الصخور، البحر المتقيّح هناك؟

عليّ أن أتحدّث مع كاما، فكّرت نانا. يجب أن تساعدني كاما. لا زال الأمر غير متأخر الآن. ليس الآن سوى خليّة تشطر نفسها، خلايا ما زالت تُطرق في شكل جديد، يجزّيء نفسه ثانية ويتصدّع ليتفتّح من جديد.

Twitter: @alqareah

- برنارد، قالت نانا في المساء حينما انفردت بها في الشرفة أمام المطبخ، حيث كان آدم وكاما يجهّزان الطعام.

- برنارد، أعادت نانا قولها ولم تكن تعرف كيف ستواصل الحديث. كان برنارد لطيفاً جداً معها. لم تكن مرتاحة لذلك اللطف.

- لقد حدث شيء، قالت نانا.

فوق الشظايا تقبع أوراق وغصون مكسورة في سلسلة طويلة، مستقيمة. إنبعثت من المطبخ أصوات مجلجلة للصحون والكؤوس التي أبرزت من مواضعها.

- لقد صنعتَ طفلاً فيّ، قالت نانا. وكأنّما برنارد كان قد وضعها في سرير وأخرج الآته الطبيّة النسائيّة.

نظر برنارد متفاجئاً نحو بطنها.

لماذا يبتسم؟ فكّرت نانا. ليس الأمر مثيراً للمرح.

- إذن فقد تحقّقت الأمنية، قال برنارد محدّقاً الى حذائه.

رفع نظرته ووضعها في عيني نانا، فالتقتها دون تهيّؤ. إتقاده، إبتسامته تجعلها غريبة من جديد.

- ينبغي علينا، قال متحيّراً، ينبغي علينا بالتأكيد أن نتحادث حول الأمر.

بقيت كلمات برنارد منطبعة في الهواء أمامه. كان عمره ينيف على الخمسين عاماً. كان صديق والدها، له خصلة شعر خفيفة على الرأس ويسير بقبّعة، وتحت القبّعة يبرز أنفه الحادّ وعيناه المدوّرتان البنّيتان الى أمام.

لم لا، فكّرت نانا فجأة. لا تريد سوى السلام. أبصرت طريقاً

Twitter: @alqareah

واحداً أمامها من غير وهاد. لقد كان خيارها ولا حاجة لها للتفكير.

- أنا لا أعرف ماذا أريد، قالت بصوت عال. بدا كلامها متعارضاً. نهض برنارد من مكانه. مضى باتجاه الشرفة دون أن يفوه بشيء، نزل الى الحديقة، تحت أشجار الصنوبر والسرو، هابطاً نحو الصخور العارية التي تنتصب فوق الماء أسفل الحديقة.

لماذا عليّ الإختيار وسط هذه الفوضى؟ فكّرت نانا.

Twitter: @alqareah

أخذ بيتر دوشاً بارداً وشرع بارتداء ملابسه تأهباً للعشاء. إنسلّ الحرّ عنه مثلما انسلّ عن اليوم، هواء المساء المبكّر تسرّب عبر النافذة الى الداخل مفعماً بعطر الياسمين المنعش، بقية الشمس تختلج وتتحرّك دائرة على الظلال في الحديقة.

تذكّر بيتر بستاناً في البصرة. كانت مالكة البستان التي يتوجّب عليه زيارتها آنذاك، إمرأة إنجليزيّة قدّمت له مساعدة في بعض الترجمات من اللّغة الأكديّة، وكان هو قد ولج من البوابة الحديديّة المدبّبة، الزرقاء الى ظلال الممرّ وعبر بوّابة ممشى ثقيلة تفضي خارجاً الى الحديقة التي كانت مكتظّة بالألوان التي تألقت بها ورود الخزامى في وفرة من أحواض الزهور الدائريّة، المربّعة، والحلزونيّة التكوين. كانا غير طبيعيّين، غريبي الأطوار. لكنّه إعتاد على الخزامى والإبتهاج بالصدمة اللونيّة التي ضربت عينيه بعد خروجه من ظلال الممشى، إعتاد على جويندولن التي كانت بذات العناد واللا تلاؤم الذي كان للورود. تحدّث بيتر، وهي تصغي وتعارضه. وضعت علامات إستفهام على أشدّ المسائل جوهريّة.

– يا لها من طاولة جميلة، أراد أن يقول ذلك عن طاولة الكتابة السوداء الصقيلة التي كانا يجلسان أمامها. أدارت جويندولن عينيها الرماديتين باتجاهه وقالت بنبر جافّة أنها لا تصدّق أنه يعني

Twitter: @alqareah

ذلك.

هل يقصد هذا فعلاً؟ فكّر هو بعد ذلك. ربما كان يحاول مداهنتها.

مع مرور الوقت، كما في أيّ حديث، عدّل بيتر في كلامه، تقلّب ودار، وفي النهاية لم يعد يعرف ماذا كان يقصد. هل كان الحرّ بهذه الشدّة في الخارج مثلما يعتقد؟ هل حياته مكرّسة للعثور على تلك الأشياء العتيقة واستحضار الماضي، نعم، يمكنه أن يحدّد الزمن، تحت أيّ ضوء؟ أسئلة جويندولن أنعشته لشهور عديدة. في غاية الإختلاف عن كاما التي كانت توافقه ولا تعارض، وهذا ما عليه أن يقرّه، مشيئته.

ومع ذلك فقد جاء اليوم الذي إنزعج فيه من أسئلة جويندولن. لقد ضايقه ذلك فعلاً. لأنّه كان يرغب بمواصلة تقبيل عنقها، الذي كان مستديراً وناعماً، يمرّر بأصابعه فوق أجفان عينيها الواسعتين ويمارس الحبّ معها على الأريكة الرماديّة القريبة من الطاولة الصقيلة، السوداء. بشرتها كانت باردة وسط كلّ ذلك الحرّ، مثل زهور الخزامى التي كانت تنتصب خارج الباب الفرنسيّ المفتوح، مذكّرة إيّاه بطقس آخر. قال لها في لحظة من اللحظات أنّه يرغب بالعيش معها.

- ترغب بذلك؟ أجابته. سؤال من أسئلتها المألوفة، فكّر هو.

بعد بضعة أسابيع سافر. جاء ليقدم تحية الوداع إليها.

- تسافر من دوني؟ سألته مندهشة.

Twitter: @alqareah

- سأعود ثانية، كذّب عليها، سأعود قريباً من جديد.

وضع يده على عنقها. دخلت خصلة من شعر جويندولن في فمها وبدأت تلوكها.

- أنا بانتظارك، قالت مستغرقة بالتفكير.

رحل بيتر، وإنزعاجه من سؤالها صار يكبر أكثر الى الحدّ الذي جعله لا يتذكّر شيئاً غيره. لم يفكّر بها كثيراً قبل أن تندلع الحرب، فخطر بباله أنها ربما قد تكون ما زالت في البيت ذي البستان حتى الآن.

لم يكن هنالك من خزامى في الحديقة حينما التي إنسابت أنا ناظريه في ضوء المساء. الشمس تضيء من الأسفل، تقريباً شبه شبه غاطسة في البحر، الضوء يمزّق البحر قطعاً من قاعدته، الغصون تتثنّى حول الأشجار، سيقان النباتات تتلوّى باضطراب بين طنين الحشرات الثقيل، العظايا تزحف في تلوٍّ رماديّ أخضر بعيون حجريّة حذرة، أشجار اليوكالبتوس تتموّج باضطراب. البستان يتعالى ويسحب النهار الى هوّة الليل.

فكّر بيتر بأنّه ظلّ مضطجعاً يقظان خلال الليل لأنّه كان نائماً فوق الصخرة التي كان البحر والشمس يطرقان عليها.

منذ أن وصل الى كابري وهو يرقد أثناء الليل مثل مشهد طبيعي خاوٍ يخترقه طريق من الصور. مرّت قطارات الأفكار الواحد بعد الآخر، محمّلة بشرائط أفلام مضبّبة. ببرنارد الآن على سبيل المثال، الذي كان يجول ماشياً في الحديقة المضطربة، يتفكّر بيتر فيما إذا كان برنارد هو والد آدم. كانت روزا جميلة، بالتأكيد، وتحبّه

Twitter: @alqareah

بطريقتها الخاصة، لكنها كانت تنام مع الرجال الذين تستطيع دفعهم الى ذلك. المرّة الإولى التي لمّح فيها بيتر الى إمكانيّة زواجهما قالت له بإنّ ذلك هو نقطة ضعفها. كان يعتقد شخصيّاً أنّ اللحظة مناسبة. روزا كانت جالسة مستلقية فوقه، عاريةً، بعينين مغلقتين وشفتين مزمومتين على بعضهما، جلدها الأبيض ينبسط أملساً تحت شعرها الأحمر، وكانت تشبه رسماً يابانيّاً بالحبر. ودّ بيتر أن يمتلكها هكذا، رفعت رغبته عالياً حتى إتّسعت خارج حدود اللحظة، تناول بوجهها بكلتا يديه، أمسكها بإحكام أسفل ذقنها وسألها.

قفزت روزا من فوقه وجلست القرفصاء مستندة على الجدار البارد. تأمّلت وجهه بنظرة لم يرها في عين أحد من قبل. نظرة عظاءة، فكّر الآن. نظرة يقظة، باحثة، وفي نفس الوقت مترصّدة فريسةً وطريقاً للهروب.

- لا يمكنني التخلّي عن الرجال الآخرين، قالت له. حينما يعود بأفكاره الى الوراء يسمع نبرة إزدراء في صوتها لم يكن قد سمعها من قبل.

وافق هو على ذلك، إعتبر الأمر عاديّاً. لم يكن في بإمكانها التخلّي عن ذلك بلا ريب، لم يكن ذلك تذبذباً خبيثاً أو لعبة زجّته فيها. كانت كتومة. لم يعد بيتر غيوراً، فقط عندما تسحب عليه السعادة ظلالها من العاطفة التي تبديها له. لكنّها حين حدّثته عن برنارد رجاها أن تتخلّى عن ذلك هذه المرّة فقط. بقدر ما كان يعرف كانت تحافظ على كلمتها. لكن آدم لم يكن يشبهه. كان أصغر، ثخيناً، مثل برنارد. لديه إخضرار طفيف في عينيه مثلما كان

Twitter: @alqareah

لبرنارد. لم يسبق لبتر أن علّق على ذلك أمام روزا. إعتبر فقط أن آدم لم يكن إبنه.

صاحت كاما ساخطة عالياً باتجاه السلّم. لقد قضى وقتاً طويلاً في إرتداء ثيابه، على أن يسرع للإنظمام إليهم.

Twitter: @alqareah

حينما هبط بيتر كان الآخرون قد شرعوا بالتهام الطعام، نانا وبرنارد جلسا قرب بعضهما على الكراسي المعدنيّة غير المريحة في الشرفة يمرّران بتهذيب الجفان والزجاجات، الأطباق والأباريق الى الآخرين دون أن تلتقي العيون ولا حتى الأيادي.

ثرثرت كاما بلا هوادة عن الخبز الذي خبزته بنفسها، لكي تجعل الآخرين يضغون، حتّى أن أحداً منهم لم يقل شيئاً. تخيّلوا! قالت هي، لم يكن هنالك أيّ خبز في المخبز هذا اليوم، الفتاة التي كانت تخبز هناك أصيبت ذراعها بماكنة القطع هذا الصباح، في وقت مبكّر بحقّ، قبل طلوع الشمس، وكيف ستمضي الأمور مع تلك الفتاة، بلى، كاما بالتأكيد فكّرت بحال تلك الخبّازة، لكن بنفسها فكّرت أيضاً، فإذا كان عليها خبز كلّ ذلك الخبز بنفسها لن يكون بإمكانها عمل شيء آخر بالتأكيد.

الضوء إختفى، فأوقدوا المصابيح في الشرفة. الطيور كانت تحلّق أكثر ممّا تغنيّ. الأشجار تتنفّس الصعداء بعد قيظ الظهيرة وتبخّر الندى. زورق بخاريّ يتيم يضاعف سرعته في عرض البحر، أضيئت المصابيح على الطرق الشاهقة، مثل عقد لؤلؤ معلّق على الظلام. الأفكار تتقافز باضطراب من نقطة الى أخرى خلف الوجوه التي كانت تنحني فوق الطاولة. نهض برنارد فجأة من مكانه.

- "هذا بالطبع ليس قراري"، قال ذلك لشجرة خلف نانا. ثمّ إستدار ومشى خارجاً باتجاه المجاز. أفرغت نانا كاسها على

Twitter: @alqareah

الأرض.

- "أنا متعبة"، قالت هي، "سأمضي الى الفراش".

دخلت الى البيت.

- "إنّه الحرّ"، قالت كاما، "لقد مكثنا أطول من اللازم على الشاطيء".

مضوا الى داخل المنزل، حاملين الصحون والجفان بأياديهم. جلس جيوفاني على الأريكة الى جانب آدم وتخيّل نفسه أوزّة بيضاء في بحيرة سوداء. كان أبوه قد توفّي منذ شهر، والموت كان أبيض، أسود، رقعة شطرنج. فكّر بألاّ يحيي ذكرى الوالد، التي بدلاً من إحيائها أضحت حصاة في أحشائه. كان أبوه يناهز الستين عاماً تقريباً حينما ولد جيوفاني، وطاف متجوّلاً في أنحاء كابري يقطف الأزهار ويكبسها في ألبوم بنّية كانت تقبع مكدّسة على إمتداد الجدران في المنزل في صفوف متعدّدة. لم يطاوع قلب جيوفاني ولا والدته على رميها الى الخارج.

- "بعها للسيّاح"، قال أخو جيوفاني في التلفون.

- "لقد قرّرت"، قال بيتر، "أن نسافر بضعة أسابيع في بغداد، ثمّ نرحل شرقاً باتجاه الجبال".

- "الى الجبال"، قالت مارثا وهي تلهث، "إنها لفكرة جيدة".

- "لا يتوجّب علينا أن نسافر في الحال، أليس كذلك؟"، إعترض آدم.

- "كلاّ، لا يمكننا أن نسافر الآن بالتأكيد"، شاركت كاما بالموّال، "مع كلّ هذه النقود التي دفعناها لتأجير المنزل هنا، في ذروة الموسم بمشهد على البحر وبأرقى ما يكون. يمكننا الإنتظار

Twitter: @alqareah

بالتأكيد الى أن ينتهي عقد الإيجار، والى أن تبدأ العواصف بالهبوب من البحر، أليست الإقامة رائعة هنا، أنت تعرف كلّ شيء بالتأكيد"، قالت ذلك موجّهة كلامها الى جيوفاني، ناسية أنّه ليس باستطاعته فهمها.

– "من المهم بالنسبة لي أن أدحض شيء ما"، قال بيتر متردّداً.

– "لن أسافر الآن"، قال آدم متجهّماً، "لم ينبغي عليّ ذلك؟".

– "جميعنا يعرف أن ثمّة لُقىً في متحف بغداد لا أحد رآها من قبل. لكن من الجليّ أنّ أحداً ما قد شاهدها. ينبغي عليّ ضمان ألاّ تبرز مزاعم زائفة، فقط لأنّ أحداً ما قد رأى شيئاً ربما قد يكون غير موجود على الإطلاق".

وجوههم البيضويّة إستدارت باتجاهه، سويّة وبانحراف إختلجت في الهواء.

– "ثمّة فتى شابّ، ذو الإسم غريب بيتروس، الذي ربّما ترعفه مارثا، يدعي أنّه الآن بصدد كتابة مقال حول مقدرته على أثبات أنّ أصل الكتابة يختلف تماماً عمّا نعرفه الآن. يتحدّث عن مجموعات كتل طينيّة متأخرة يقول أنه شاهدها في بغداد. أنا لا أعرف إن كانت موجودة أصلاً، وإستيعابه للموضوع يبدو متكلّفاً وسخيفاً".

صار بيتر يصرخ الآن.

– "سخيف تماماً".

خبط بيتر بقبضته على المنضدة حتّى أنّ الكؤوس سقطت.

Twitter: @alqareah

حدّق في غضب بالطاولة المبلّلة ورفعها عالياً من طرفها فانقلبت بما فيها الى أمام مقرقعة على الأرضيّة أمام آدم وجيوفاني.

- "وهكذا قد عرفتم"، زعق بيتر، "مثل هذا البليد يجب ألاّ يسمح له بالافتراء على ما هو مسلّم به".

غطس بيتر في كرسيه مائلاً الى الوراء وأغمض عينيه.

- "نحن الإثنين يمكننا الرحيل"، قالت مارثا، " لا ضرورة للبقاء هنا طويلاً".

مارثا تعرف بيتروس جيداً. كانا قد إلتقيا في إحدى الحفلات، حيث إبتسم لها بتنازل، مقتنعاً بأن لا أحد يمكن مقارنته به في المعارف، ولا حتى مارثا التي ليست سوى فتاة. حينما إكتشف بيتروس إبنة من هي أخذ يرتعش، وبدأ وجهه بالإنفلاق في تصدّع لحميّ مبقبق.

لاحق بيتروس مارثا بأسئلة عن بيتر. حينما إلقتيا في المعهد رصّ نفسه عليها، فابتعدت مارثا عن فمه المفتوح المبلّل، وكانت تمقت أن يقسرها أحد على الهروب. إنها تودّ من صميم قلبها ان تعين بيتر على دحض مزاعم بيتروس.

- "عائلتي كانت تسافر دائماً مع بعض"، قالها بيتر ومال بظهره متراجعاً في الكرسيّ، إحتفظ بعينيه مغلقتين وأطبق أنامله على بعضها.

- "هذا موضوع غير قابل للنقاش".

إلتقطت مارثا قطعة تورتة من على الأرضية ودورّت كرات صغيرة منها. اشعل آدم سيجارة. دفع جيوفاني بجلد أظافره بإصبعه. إحتجاج كاما كان بأن تكون صامتة، جلبت مكنسة وجاورفاً

Twitter: @alqareah

للأوساخ وجثت على ركبتيها فوق الأرضيّة وأخذت تجمع شظايا الزجاج، شعرها الأحمر يتطاير جيئة وذهاباً، وبيتر فتح عينيه من جديد وكان عليه أن يقرّ بأنّ رؤية كاما جاثية على هذه الشاكلة أمر شديد الإغواء. دخلت نانا الى الصالة. يداها تمسّدان بعصبية على أسفل فستانها الأزرق. نظر بيتر الى الأيادي في الصالة، كما تخيّلها بنفسه، كان على ليوناردو أن يشاهدها، سريعة، خارجة من طرف العين، هاجعة، مقوّسة، مرفوعة، متوتّرة العضلات. فكّر بيد الخبّازة العريضة مغموسة في الكحول. نظر الى يديه ذاتهما، باظفارها المربّعة، المقصوصة ولفائف الشعر القصيرة على إمتداد أصابعه.

- "ربّما لن تعني النقود كثيراً"، قالت كاما في النهاية، "يمكننا بالتأكيد الرحيل لبضعة أسابيع".

Twitter: @alqareah

كتبت نانا خطاباً الى برنارد.

عزيزي برنارد. لا تكن غاضباً. ربما يمكنني أن أسلم نفسي مثل غصن يسقط من شجرة ويسلم نفسه الى حركة النهر. إنّه السقوط الذي أعارضه، لكن ليس تدفّق النهر.

نانا.

وضعت الخطاب في مظروف ومضت الى الفراش. لم تكن قد فتحت مصراعي النافذة منذ قيلولة الظهيرة، خلعت ثيابها فقط واضطجع في السرير تحت الملاءة. آدم وجيوفاني أطبقا الباب وراءهما بعنف حينما ذهبا. تحدّثت كاما في التلفون وهي في حوض الإستحمام، فيما كان بيتر يجول فوق. فكّرت نانا بإله القمر في سومر، الثور السماويّ، التي سمّيت على إسمه.

- "نانا لم يعد بالتأكيد إسم رجل"، قال بيتر ذات مرّة.

- "إذن فقد كان جيدّاً أن تكوني فتاة".

بعدها ربّت على كتفيها بشدّة وكأنّها كانت رجلاً.

لقد كانت إلهاً.

أغلقت عينيها وأحسّت بأحجار الزقّورات الصلبة، الملساء تحت قدميها. صلصال محترق، بارد. ليلة صلصاليّة. دخان من المذبح في الأنف.

مدّت نانا ذراعيها، مدّت ساقيها. كانت قرن الثور الأبيض،

Twitter: @alqareah

كانت هلالاً في قوس السماء. صوت حوافرٍ عنيف مرعد فوق البلاط يهدر من حولها. فرقعة حادّة من دم باتجاه السماء. القنطرة الدمويّة الإحمرار مع القرن الأبيض، الهلال، نانا.

- "أنا الإله"، همست نانا.

كذلك تخيّل بيتر نفسه أنّه متواجد في معبد نانا حينما كان مضطجعاً سهران على السرير. كوّن صورة لصبيّ. بمشقّة يرتقي هو درجات الزقّورة التي كانت عالية وثقيلة للسير عليها. كانت يرتدي رداءاً مهلهل النسيج، يصل الى كاحليه مع شريط أصفر حول المعصم يشير الى أنّه خادم نانا. إنّه الربيع، والطبيعة مغمورة بالزهور، من قمّة الزقّورة يبدو مشهد النهر وكأنّه زهرة واحدة تفتّحت أوراقها. الشريط الطويل المتلألئ من قنوات الريّ يشقّ طريقه عبر الحقول، الثيران تكدّ في الغيط، جيوش الطيور تتمايل في الهواء أمام ناظريه، طيور الوَرْوار تطارد فوق الحقول.

خارج بوّابة المدينة يموضع بيتر قافلة حمير محمّلة بأقمشة متألّقة الألوان في طريقها نحو الشمال. يقول بيتر للصبيّ أنّ لا وقت لديه للوقوف والتحديق. إنه خادم الإله، خدمته تأتي قبل شهوة النظر. الصبي يجثو على ركبتيه أمام المذبح. يتناول مكنسة في يده وعجّل بجمع الغبار وحبّات القمح عن الزريبة، بذور الخشخاش والعظام. شرع بكنس الساحة قدّام المذبح. أمرٌ لم يُسمع به قد حدث، قرّر بيتر. الصبيّ سمع الكاهن يهمس في الممرّ المغمور بالظلال في المعبد. كاهن شاب قد مات، أوفراكا، الذي إنضمّ توّاً الى المعبد.

Twitter: @alqareah

الكهنة، في أرديتهم الليلكيّة، الحمر والصفر مع الأشرطة ذات النسيج الرائع، المدلاة من قبّعاتهم المدوّرة على الخدود يتّكئون على بعضهم ويتهامسون غير مفكرين بأنّ خدم المعبد الصغار يسمعونهم. لا أحد يعرف لم مات أوفراكا. إنبغى عليهم أن يحشوا فمه بالصوف لكي لا يوقظ نانا بصراخه. على الكهنة الموت في سكون، وإلاّ أيقظوا غضب الإله. والآن يتوجّب تطهير المعبد. أضحية خاصّة في طريقها من الملك. إذن يتوجّب عليك الكنس بحرص، نصح بيتر الصبي الصغير. يجب ألاّ تقام طقوس أو تقدّم نبوءات خلال فترة التطهير. قاطعو القرون ماضون من الآن في تزويق الثيران الفتيّة التي تقف في باحة المعبد وأقدامها مربوطة على بعضها. خدم آخرون يمضون جيئة وذهاباً في حركة سير بين المعبد والبئر. بعضهم أرسل الى غرف المؤن لجلب الزيت الذي سيسكب في المذبح. جعل بيتر الصبيّ يكنس كلّ حبّة قمح، كلّ ذرّة غبار في المكان. حينما يكون بيتر مستغرقاً في النوم فإنّه يعمل بحرص أكبر. جعل الصبيّ من الغبار وبقايا القمح والعظام تختفي مع الريح. طحن البقايا القليلة من القرون المقطوعة في هاون وقذف بها خارجاً أيضاً مع الريح. تطلع الى ما حوله حينما إنتهى من عمله. هذا المساء عليه القدوم من جديد. عليه السير في مؤخرة الموكب مع رفاقه. يجب عليهم أن ينظروا الى الأرض، وليس الى القمر، الى حين إنتهاء تقديم الأضحيّة.

عندما إستيقظ بيتر ثانية كان الصباح قد حلّ، ورأسه على وشك الإنفجار. حين قدمت كاما إليه كان جاثياً مثل كلب على

Twitter: @alqareah

أربع ويدير رأسه من جانب الى آخر على الوسادة.

- "أظنّ بأنّه ينبغي عليك ألاّ تسافر لأيّ مكان"، قالت كاما بمرح.

وضعت يدها على ظهره وأجلسته على السرير. لم تكن هذه المرّة الأولى التي يرقد فيها بيتر على هذه الشاكلة في الصباح. أصغت الى صوت الأمواج الواهن التي كانت تتشظّى وتتشتّت عند لقائها بالصخور.

- "لقد سمّموني"، قال بيتر.

- "لقد نسيتَ فقط أن تشرب ماءاً"، ردّت كاما، "أنت لا تشرب سوى النبيذ والقهوة، حتى وإن كانت ساخنة جدّاً".

- "يريدون تسميمي"، قال بيتر، "لكي يتحرّروا منّي. لقد سمعتيهم بنفسك".

- "السمّ"، قالت كاما، "شيء ينبثق من الداخل".

Twitter: @alqareah

كانت مارثا واقفة في طابور داخل محل لبيع الكتب في مدينة كابري لكي تجلب كتاب سير ليونارد وولي عن التنقيبات في أور. كانت قد قرأت الكتاب عندما كانت صغيرة، إذ يمتلك بيتر نسخة منه في أحد جوارير صندوق رحلاته، نسخة أولى مهداة.

الآن، حيث أرادت إستعادة ماكتب وولي، مهما كان مغرقاً بالخيال، كان الكتاب قد إختفى. حين سألت بيتر عنه إكتفى بهزّ كتفيه.

- "أشعر بآلام، يا مارثا"، ودلّها بيده بدِقّة أين يكمن موضع الألم في رأسه. "يجب ألاّ تقلقني بمثل هذه النوع من الإفتراءات".

ذات مرّة كان بيتر ومارثا جالسين في المساء داخل خيمة أمام موضع التنقيبات في أور، أخرج بيتر الكتاب وأخذ يمسّده فوقه بيده. تنهّد وقال مع أنّه كان محلّ تساؤل الى أبعد حدّ لكن من المؤسف أن يكون وولي قد مات، فقد كان بيتر يودّ كثيراً رؤيته وهو يعمل في التنقيبات.

- "لكن في إختصاصنا ينبغي بالتأكيد ألاّ نتوح على الناس الذين يموتون ويدفنون"، أكمل هو.

كان الجو رطباً حيث كانا يجلسان في فتحة الخيمة عند طاولة منطبقة ذات مصباح نفطيّ فوقها. النهر يهسهس، والعمال العراقيّون يتحدّثون بصوت عال مع بعضهم حول النار. كلمات بيتر ويده فوق الكتاب كانت كلّ شيء بالنسبة لها. لم تكن تفهم كيف يمكنه أن

Twitter: @alqareah

يدعو هذا الكتاب ترهات.

إنسحبت مارثا من سكون الخيمة عائدة الى محل بيع الكتب. كانت منزعجة من إضطرارها للإنتظار طويلاً. خارجاً في الشارع كانت روزا تمضي عابرة بقبّعة بيضاء على شعرها الأحمر وحقيبة حمراء بشعة على ذراعها. حدّقت مارثا في النافذة وكان المشهد الفجائيّ سيظهر للعيان من جديد، لكن لم يكن سوى حشود بشر لا أشكال لها، فركضت في الجادة الصغيرة وأبصرت الفتاة تسدير حول الزاوية المؤدّية الى محطّة الباص.

كانت مارثا قد درست الصور التي إلتقطتها روزا، إضافة الى الفلمين الصغيرين اللذين كانا بحوزة بيتر، الأوّل عن زفاف روزا وبيتر، والثاني عنها عندما كانت حبلى بها هي وتجلس على العشب وهي تصفق وتغنّي لآدم، فيما كانت تتطلع بثبات نحو الكاميرا التي تصوّر. أنف روزا كان دقيقاً، مع إحدداب معقفوف في طرفه، أنف تعرّفت عليه مارثا في وجهها الشخصيّ.

– "أنا أشبهك"، همست هي للصورة. نانا كانت الوحيدة التي ورثت شعر روزا الأحمر، كلاهما هي وآدم كانا أشقرين.

لم تكن مارثا في شكّ من تلك المرأة التي مرقت أمامها في الطريق الى محطة الباص كانت روزا. سارت في خطّ متعرّج بين العديد من الناس ثم أستدارت حول زاوية الساحة. إستقلت المرأة إحدى الباصات الصفراء المنخفضة العاملة في الجزيرة. أطبقت بابها سراعاً ومضت. هرولت مارثا الى جانب الباص وهي تلوّح للمرأة التي رفعت، متحيّرة، حقيبتها الحمراء وسحبت سلحفاة من عنقها الى الأعلى. بعدها تحرّك الباص باتجاه الساحل عند المغارة الزرقاء.

Twitter: @alqareah

إشترت مارثا، التي ما تزال تلهث، تذكرة وجلست متهيّئة عند أول باص. الزمن إنمحى. الهواء الساخن، الراكد ملأ جيوب الزمن. لم لا؟ غادر الباص محطة الوقوف، ومارثا ملتصقة من العرق على المقعد وتنظر الى المنعطفات والأشجار على الطريق والصخور البيض والبحر الخرافيّ الأزرق.

Twitter: @alqareah

- "إذن أنتِ تعتقدين ان تلك المرأة كانت روزا التي تعرّفتِ عليها من ألبوم الصور"، قال بيتر بارتياب.

جلست مارثا الى جانب سريره وهي تأكل البرقوق. إضطجع بيتر على جنبه مستنداً على كوعه. كان يشعر بالصداع من جديد واضطرته كاما على الإستلقاء في السرير.

- "لكن الزمن قد مضى، يا مارثا. حتى وإن كانت روزا حيّة فستفترق عن تلك المرأة التي رأيتيها في ألبوم الصور مثلما تفرّقين البرقوقة عن النواة. لم تكن روزا أكبر مما أنتِ عليه الآن سوى ببضع سنين حينما توفّيت. كانت أصغر سنّاً من كاما".

- "لقد كانت هي"، قالت مارثا بعناد، "لقد رأيت الباص، وكان متوجّهاً باتجاه المغارة الزرقاء".

لم يكن بيتر يعرف أحداً يمكن أن يكون بهذا العناد مثل مارثا حينما يتعلّق الأمر بشيء لا معقول. لكنّه أحبّ الفكرة. أن تواصل روزا الحياة في صدع زمن مُغفَل وتبرز فجأة للعيان كذات روزا القديمة، بوجهها الجميل ذي التسعة وعشرين ربيعاً. سيشبهها كثيراً السير متجوّلة بحقيبة ملأى بالسلاحف. كان يعرف أيضاً أنّ العناد والتعلّق بتفاصيل لا عقلانيّة يمكن أن يجعل من مارثا عالمة آثار جيّدة. خبر شخصيّاً أن يكون على حافّة اليأس بشكل مبكّر أثناء إحدى التنقيبات، ولم يمكنه سوى المواصلة رغم أنّه كان يقف مرتباً من دون مكتشفات، لأنّه كان يفكّر بعناد السير ليونارد وولي.

Twitter: @alqareah

لم يقل ذلك علانيةً، لأنّ الرجل كان حالماً، إلاّ أنّه كان تقنيّاً ماهراً.

كان كتاب وولي عن التنقيبات في أور هو الذي جعل من بيتر آثاريّاً. لقد كان ذات الكتاب الذي يفتح الطريق لأحاسيس تنسرب عبر عموده الفقريّ، مثلما ما يزال يفعل إسم مدينة أور.

كان ذات الكتاب الذي جلبته أمّه معها مهلّلة الى البيت من المكتبة.

- "الآن يمكن أن ترى"، هتفت لوالد بيتر حتى قبل ولوجها من الباب، "أنّ كلّ كلمة أقولها، هي حقيقة".

لم يكن بيتر يعرف ما الذي دفع والدته لزيارة المكتبة. بقدر ما يعرف، فقد كانت المرّة الوحيدة التي وضعت فيها قدمها هناك. بالنسبة لها لم يكن ثمّة سوى كتب يتيم، وكان ذلك هو الكتاب المقدّس. لقّنت بيتر أغلب أجزائه منه على ظهر قلب، صفحة صفحة، سِفراً سِفراً، كان يجلسان عند طاولة المطبخ ويقرآن، فيما كان الوالد يتأرجح جيئة وذهاباً في كرسيّه الهزّاز داخل الصالة بغليونه وروايات الأكشاك مطلقاً هتافات إزدراء نحوهم.

- "ترّهات مثل هذه"، صاح هو، "خريط ومريط من البداية للنهاية".

ثمّ دفن نفسه ثانية في كتابه. كانت والدة بيتر تحدّق بثبات مستديم في اللوحة المطرّزة التي كانت معلّقة فوق طاولة المطبخ. حين يكون الوالد قد إنتهى تتحلّل نظرتها سراعاً الى عصيدة دافئة، رماديّة.

- "إقرأ ذلك ثانية، يا بيتر، وإغلق بعد ذلك عينيك ثمّ ردّده، بطيئاً، كلمة كلمة".

Twitter: @alqareah

ذات أصيل قدمت الأمّ الى المنزل مسرعة وأمسكت بالكتاب الذي جلبته من المكتبة أمام الوالد. عثرت بأيدي حريصة على الصورة التي إلتقطها السير وولي، حيث كان إثنان من العاملين يقفان في دشاديش مهلهلة طويلة وكوفيّات على رؤوسهم مع فؤوس على أكتافهم أمام متر من التراب الأسود.

ـ"خريط ومريط، هاه؟ أنظُرْ فقط هنا، أنظر الآن، إنّها حفرة الطوفان، هناك بالضبط عثروا عليها. العلماء، أنت. إنهم يحفرون ويعثرون على ذلك، أنا أقول. أنظر الآن".

توقّف الوالد عن التأرجح، تناول الكتاب منها وحدّق الى الصورة.

– "هذا ما أقوله دائماً. لا يمكن للمرء أبداً الوثوق بإنجليزي. أيّ شخص بإمكانه بالتأكيد أخذ قطعة أرض والزعم بأنها حفرة الطوفان. أستطيع الذهاب الى الحديقة وفعل الأمر نفسه".

الأمّ كانت منتصبة لا تتحرّك أمامه والكتاب في يده. بيتر جالس عند طاولة المطبخ والكتاب المقدّس مفتوح أمامه، متهيّئاً لدرس اليوم. بدا وكأنّ ساعات عديدة مرّت بدون أن يتحرّك أحد. بعدها خرجت الأمّ الى المطبخ وابتسامة سخرية تلوح على فمها، دفعت الكتاب المقدّس جانباً فهوى على الأرضيّة في دويّ صاخب، ووضعت كتاب وولي عن تنقيبات أور أمام بيتر.

"إقرأ!"، قالت له، "جرّب أن تجد ضالّتك بنفسك، فأنا أخمّن أن والدك سيؤمن بما يقوله إبنه ذاته".

ثمّ خرجت الى حديقة المطبخ مع معزقة وإبتسامة غريبة

Twitter: @alqareah

ما زالت تلوح على شفتيها. لم تطلب من بيتر أبداً قراءة الكتاب المقدّس منذ ذلك الحين.

الكتاب حول التنقيبات فتح شيئاً في داخله، التفكير بأسرار الأرض، حقائقها المخفيّة وطبقات الزمن. حينما أصبح أكبر عمراً كانت الأرض ذاتها هي التي فتحت نفسها إليه، كانت ركبتاه، يداه وعيناه اللواتي يدفعن بأنفسهن حرفيّاً في أعماق الماضي عبر نفايات آلاف السنين. لم يكن يفعل ذلك من أجل والدته. أو هل كان كذلك؟

كانت قد إختفت بالنسبة إليه في غياهب إبتسامتها المتهكّمة. ذات يوم عاد الى البيت من المدرسة وعثر على أبيه في كرسيّه الهزّاز ورأسه مدلّى الى الوراء فاغر الفم، وثمّة لطخة حمراء رطبة من الأمام على بلوزته التي كانت تفوح منها رائحة كريهة.

إنطلق صوت نخير من فمه. خرج بيتر من المنزل باتجاه صندوق التلفون في زاوية الشارع وإتصل بسيارة الإسعاف من هناك. كان واقفاً بين الجيران، رجال الإسعاف حملوا الأب خارجاً على نقالة، والأمّ تبعتهم ببرود بحصبة شرطيّة حازمة المظهر. لم يعد يراها ثانية منذ ذلك الحين رغم أنها ما زالت على قيد الحياة. ينبغي أن تكون قد ناهزت الثمانين الآن. أخبروه عنها أنّها كانت تجلس عند الطاولة والكتاب المقدّس مفتوح أمامها وهي تطالع فيه بصوت عالٍ على إمتداد اليوم. الوالد شعر أن من الواجب عليه زيارتها كل عام في عيد ميلادها، لكنّها لم تتعرّف عليه.

عاش الوالد طويلاً بعد أن إختفت هي. أضحت الأمور تجري أسهل مما كانت عليه. ورغم ذلك، فقد قضى بيتر عمره في إثبات

Twitter: @alqareah

ما التمست والدته منه.

- "ينبغي علينا التحقّق من الموضوع عن قرب"، قال لمارثا.

أحسّ بيتر بروحه تنبعث. هنا هنا شيء يمكنه أن ينشغل به فيما هو ينتظر أن يزول الصداع عن رأسه، لكي يمكنهم السفر الى بغداد.

- "يمكننا كلب المساعدة من جيوفاني"، قال بيتر، "إنه يعرف الجميع في الجزيرة. حتى لو كانت ليست روزا، فسيكون من الطريف الإلتقاء بأحدٍ يشبهها".

Twitter: @alqareah

إتكأت نانا بظهرها على مسند المقعد في رواق الفندق. كانت قد خرجت من دون أن تخبر أحداً الى أين هي ذاهبة، وهذا منحها شعوراً ثملاً، رائعاً بإمكانية الإختفاء.

كان عليها الذهاب للطبيب. حاولت أن تتحدّث مع برنارد الذي كان يعاملها وكأن حياتهما المشتركة قد أتفق عليها، وأنّ الكلمة الأخيرة قيلت في رسالتها. كان يأتي حاملاً بالشيكولاتة، الدرّاق، والزهور إليها. بيتر كان يحدّق إليه وكأنّه كان مجنوناً حينما يراه يمشى الهوينى جائلاً داخل البيت بحثاً عن نانا. كانت تأكل ما يجلبه لها ثمّ تتقيأه بعد ذلك. الأمر عاديّ، أكّد برنارد. حينما ذهب فكّرت هي، كلاّ، لا يمكنني أن أفعل ذلك.

إلتهمت كعكاً هلاليّاً صغيراً وشربت قهوة، فيما كانت تنتظر أن تحلّ الساعة 11، وكان لديها متسع من الوقت. سترجو منهم إزالة الحياة التي تنمو في داخلها، فليست لها أيّة علاقة بها.

مضت نانا الى البار لكي تدفع. كانت الضوء ممتدّاً عبر سلسلة طويلة من النوافذ المشرعة باتجاه الجادّة، سمعت أحداً يصيح في الجهة الثانية من الفندق، وفجأة طار موظّفو البار وحجرة الإستقبال الى النوافذ حاملين الكراسي والمقاعد في أيديهم وقفزوا فوقها ثمّ أغلقوا النوافذ بإحكام وظلّوا واقفين فوق الكراسي وهم يتطلّعون الى الخارج.

موضعت نانا نفسها وراءهم. في البدء قدمت خمسة جياد سود

Twitter: @alqareah

بأرياش زينة حمراء وسوداء في أعرافها، بدت في الضوء الساطع وكأنّها عصيدة أجساد حيّة سوداء. كانت تسحب عربة مفتوحة ذات فسطاط في أعلاها، حيث كان التابوت مسجّى ومغطّى بعلم وزهور كانت تلتفّ على السواري. خلف العربة سار تقريباً مائتا شخص، متمهّلين، برؤوس منكّسة نحو الأرض. الجميع كان بالأسود، متراصّين مثل الخيول. عضلات. حركات. كان الموكب كتلة حيّة سوداء، أكثر حياة من أيّ شيء رأته نانا من قبل.

لكم قد تأخرت إذن، فكّرت نانا. تلمّست بإبهامها مفتّشة عن نبضها. صوت وقع الأقدام على الأسفلت يملأ الصالة الى الحافة. الأقدام تدوس في داخلها. تلك الكتلة الأكثر حياة تسير متجهة فوق الظلال المعشوشبة لشجرة البتولا، حيث كانت تقطن. كانت هي الطريق. إنها تتحسّس خطواتهم. هي برج المعبد، الخطوات، الأحجار قطعت لأجل أقدام مسحوبة. وفي داخلها كان ثمّة أقدام، لا تريد أن تقرّ بها، تسير وتسير. لقد كانت طريقاً، سطحاً متصلّباً أسود.

غرزت نانا أظافرها في راحتي يديها. أن تكون حيّاً كان إستثناءاً. ثمّة أقدام في صنادل، أقدام في أحذية سوداء شديدة الضيق. كانت تفكّر كيف تحتكّ قدم الجنين في الرحم، متهيّئة للمشي، متهيّئة للجوارب، للصنادل، الجزمات، الرمل، الماء، الأظافر التي تنمو ويجب أن تُقصّ، قطعةً قطعةً ينبغي أن تُقصّ.

إضمحلّ موكب الجنازة. فجأة تلاشى آخر لابس للسواد. عاد ضوء الشمس من جديد. فتح موظّفو الفندق النوافذ ونزلوا عن كراسيهم وتخوتهم وعادوا الى البار، المطعم، مكتب الإستقبال.

Twitter: @alqareah

بعدها حانت الساعة 11، فطبطبت نانا على بطنها بإنتصار.

- "الآن ليس عليك أن تنتظر طويلاً".

Twitter: @alqareah

صعدت كاما بالبريد الى بيتر الذي كان قد تناول ثلاثة أقراص من مسكّن للصداع وجلس عند طاولة الكتابة محدّقاً الى الخارج عبر النافذة. جرّب أن يخبط رأسه ثلاث مرّت فوق سطح الطاولة لكن ذلك لم يجد نفعاً. أضحت الأشياء تتراءى له مثل جبال، وإن كانت ليس سوى خزانة صغيرة أوشجرة. قلّب الرسائل بشكل عابر. ثمّة رسالة جديدة من بيتروس، فالتمس من كاما بفظاظة أن تنصرف خارجاً. خرجت وصفقت الباب من خلفها.

كتب بيتروس أنّه بعد رسالته الأخيرة تهيّات له فرصة زياة العراق لثلاثة أيام، أو دعنا فقط ندعوه سومر، كتب جذلاً، حيث زار بالطبع المتحف العراقي في بغداد. إستطاع قليلاً مشاهدة اللُّقى التي عثرت عليها بعثات التنقيب العراقيّة، لكن لا أحد لحد الآن يرغب بالإعلان عنها، منجم ذهب حقيقيّ كانت، بحوث عشرات السنين، خصوصاً بالطبع ما يتعلّق بتطوّر الكتابة، خبّأت في سرداب محصّن تحت المتحف. وأيضاً، يا زميلي العزيز، يواصل بيتروس، فقد أمكنني الحصول على تعليلات أضافيّة لحجحي. الكتابة نشأت بشكل أكيد في عدة مدّن في ذات الوقت وسبب ذلك هو المتطلبات التي إقتضتها التجارة المتنامية. أنتظر بأقرب فرصة إرسال مقالتي المنتهية الى النشر. المعرفة موجودة، لكن يتوجّب فقط إكتشافها. ربما سنلتقي عمّا قريب، أخطّط كذلك لزيارة إيطاليا الجميلة.

تقبّل تحياتي الرفاقيّة، بيتروس هنريكسن.

Twitter: @alqareah

مثل هذه الوقاحة الطنّانة. لكن المعلومة هي المعلومة. لو فقط أمكن لبيتر أن يرى ما يدعوه بيتروس دلائل، سمكنه عندها أن يعرف أين يقف.

بصق بيتر على الرسالة، حملها الى الحمّام، مزقها قطعاً وترك قصاصاتها تتناثر في أسفل المرحاض، بال عليها ثم سحب السيفون.

فكّر بتلك المرّة التي شارك فيها بمؤتمر حول علم اللغة السومريّة في مراكش. إستيقظ على صوت مبنعث من جهاز التلفاز المجاور، حيث كان آدم ومارثا يشاهدان قناة السي أن أن. سمع القنابل والأصوات الأمريكيّة المتوتّرة. مضى إليهما، كاما قدمت أيضاً، كانا يحدّقان بقنوط في التلفاز طوال الليل. لم يتمّ في أيّ وقت عرض ما كانوا يفكّرون به. وجوه الناس. أيادي الناس. الحوض النحاسي اللامع في سوق البصرة، ضفائر الحرير في البساتين، خوار الجمال المجفل. لا وجود لها.

الساعة الرابعة صباحاً مضى بيتر الى صالة الفندق، وبدا وكأنّ الحرب قد خرجت من التلفزيون لتكون أشدّ قرباً من جسده. لم يكن في الصالة غير البوّاب الذي كان نائماً فوق المنضدة، في أعلاه يعرض جدار فيديو ثمان قنوات تلفزيونيّة في نفس الوقت. على شاشتين منها تعرض مشاهد قصف العراق بالقنابل، على الإثنين الأخريين تجري مباراة غولف. بطاء ومتروّين يؤرجح الرجال مضاربهم ناقلين طاقتهم نحو الكرة التي تحلّق في قوس أنيق فوق حفرة الرمل. في التلفزيون الهنديّ يرقص رجل وامرأة حول

Twitter: @alqareah

بعضهما، فيما كانت أفواههما تنفتح وتنغلق مثل أفواه الأسماك، على قناة أورو سبورت يسحب رجل إحدى الشاحنات خلفه. فكّر بيتر أنّ الأمر ليس بهذا السوء. لكنه كان كذلك.

خرج من غرفة الحمّام وأغلق الباب وراءه. إذا أتيح لبيتروس هذا مشاهدة كلّ ما يريد، فنبغي أن ذلك باستطاعته أيضاً. لكن قبل ذلك يتوجّب التخلّص من الصداع والعثور على تلك المرأة التي تشبه روزا.

Twitter: @alqareah

فغرت نانا عينيها. قطعت الأسفلت الذي كان كتلة حيّة. أقتيدت الى داخل غرفة الفحوصات الطبّية، كانت عينان مفتوحتان. ثمّة سجادة خضراء على الأرضيّة. طلبت الطبيبة من "شطر جسد نانا الواقع خلف عينيها أن يستلقي فوق الأريكة". الطبيبة إبتسمت. تموّجت الكلمات خارج فمها فتلقّفتها نانا. كلمات كبيرة سوداء.

- "إذن أنتِ تعتقدين بأنّكِ حامل"، سألتها الطبيبة بالإيطاليّة.

هزّت نانا رأسها موافقة. بعدها أغلقت عينيها أمام الألوان الملحاحة، الحوافّ، الأصوات المرئيّة، وأحسّت بالطفل يتقلبّ في يد الطبيبة، أحسّت بأهدابه، أجفانه. ضمّت الطبيبة يدها حول الطفل وأدارته حول نفسه. تأوّهت نانا.

- "هل يؤلمك ذلك؟"، سألت الطبيبة، "ليس ذلك سوى إصبع سبّابتي. لا ينبغي أن يكون مؤلماً".

لا ينبغي أن يكون مؤلماً. تهكّمت نانا.

إنفتحت للانطباعات البصريّة من جديد. إنزلقت الأجفان الى الأعلى حتى المنتصف، وبذا لم يفسح مكان للرؤية سوى لمحيط الطبيبة.

- "متى عاودتك آخر دورة شهريّة"، سألتها الطبيبة فيما كانت تدير من جديد قبضتها وتتنهّد. لم تجب نانا. أتعبتها الأسئلة وجعلتها تشعر بالغثيان. أدارت رأسها جانباً وتقيّات فوق سجادة الأرضيّة. لم تعر الطبيبة إهتماماً لذلك. أحضرت مساعدتها ماء

Twitter: @alqareah

وقطعة جوخ وشرعت بالتجفيف. سحبت الطبيبة كنزة نانا الى الأعلى ودهنت بالجلي جلدة البطن باصابع باردة، صلبة، فيما كانت تضغط على زر التشغيل في الماسح الإشعاعي.

- "يجب أن أرى طفلي"، فكّرت نانا فجأة. إنكمشت أصابعها من الإثارة.

أدارت الطبيبة شاشة الماسح الضوئي بعيداً عن عيني نانا الواسعتين. تقيّات نانا من جديد حينما ضغط مقدمة الماسح على البطن، لكن هذه المرّة تلقّفت المساعدة القيء بواسطة أصيص.

إسترخت نانا وانتظرت، فتحت عينيها، قنصت لوناً، صورة كفافيّة، حاولت السيطرة على الغثيان، فيما كانت الطبيبة تمرّر مقدمة الماسح جيئة وذهاباً، الى الجانبين وبطيئاً فوق بطن نانا. مرّت أكثر من عشر دقائق قبل أن تنحني الطبيبة الى الأمام وتطفيء الماسح الإشعاعي.

- "عليّ أن أخيّب ظنّك"، قالت لها، "ليس ثمّة طفل. ليس ما تشعرين به إلاّ ورماً خبيثاً. لا يبشّر الأمر بالخير. كان يتوجّب عليك أن تأتي الى هنا منذ زمن طويل".

فغرت نانا عينيها. لقد رأت الطفل بنفسها. الأقدام، الأجفان، الرموش. نهضت من الأريكة وزرّرت كنزتها. أبصرت الأضواء، الأشكال، الصور.

- "سأكتب لكِ ورقة إدخال للمستشفى في نابولي"، واصلت الطبيبة، "عليك أن تهيّئي نفسك للأسوأ. يجب أن تتصلي بهم اليوم".

سلّمت الطبيبة لنانا ورقة في يدها. رفعت يدها ومسّدت على

Twitter: @alqareah

خدّ نانا. أبصرت الطبيبة عبر حصن العين، البرج الصغير.

- "مرحباً بك في أيّ وقت"، قالت لها. كان الحزن بادياً عليها.

أومأت نانا برأسها ثمّ مضت خارجاً.

عليّ أن أبلغ كاما بذلك، فكّرت هي.

Twitter: @alqareah

كانوا يتنزّهون منحدرين الى الشاطئ. الصخور تنهض جامحة وحادّة فوق المسلك الذي تفضي آخر قطعة منه الى الخليج الصغير. سار الإخوة الثلاثة في المقدمة، كاما وبرنارد كانا يسيران بطيئين، حذرين خلفهم. إنهم ذاهبون للإستحمام المسائيّ. ولأجل هذه المرة فقط قدم بيتر معهم، كان يسير في الخلف واضعاً منشفته على كتفيه وجيبه مليء بالحصى الصغير الذي كان يخشخشه بيده. الشمس كانت ثقباً متّقداً برتقاليّاً. البحر دوّامة زرقاء.

– "قريباً سيكون البحر بارداً جداً للعوم فيه"، قال برنارد. كاما وافقته على ذلك.

أبدلوا ملابسهم بثياب العوم في كابينة إستحمام فيروزيّة. لفّت كاما شعرها تحتّ قبّة الإستحمام. مارثا لم ترغب بالعوم، تنولت كتابها وجلست على مقعد بحريّ في الظلال. وقف بيتر خلفها في سروال العوم وتنهّد.

– "لعل الطقس بارد للعوم"، تمتم قائلاً.

أيتحدث إليّ؟ فكّرت مارثا. لم تستدر للإجابة. قدِم بيتر ماشياً وهو يتمتم بشيء الى بيتر.

– "هل تعتقد أنّ الجو بارد؟"، سأله. مضيا معاً الى المدرج وزحفا نازلين الى الماء.

خرجت كاما ونانا سوية من كابينة الإستحمام. نانا كانت في ثياب العوم. نضت عنها كلّ طبقات الثياب التي كانت ترتديها في

Twitter: @alqareah

الساعات الأخيرة، فتنزّهت عينا كاما على جسد نانا تتفحّصه في فضول.

- "هل ترين ذلك؟"، سألتها نانا.

إستدارت مارثا الى ناحية الشمس. قفز آدم الى الماء من الصخرة. أصوات الرجال تختلط بصوت الماء الذي يمتصه التيار باتجاه الصخور.

- "أرى ماذا؟"، سألتها كاما، لكنها كانت قد شرعت بوضع الخطّة. زواج. ولادة. تعميد. ستكون منشغلة جداً.

- "أنا بانتظار طفل"، قالت نانا، "كنت أشكّ في كوني حاملاً. لكن الآن لم أعد كذلك".

- "ممن؟"، سألتها مارثا من دون أن تنهض عن المقعد.

أومأت نانا برأسها صوب الماء. إنهم لا يفهمون.

- "لكن ليس هنالك من أحد في الماء"، إعترضت كاما.

آدم، فكّرت مارثا، لكنها لم تقل ذلك.

وقفت الفتيات الثلاث وهن ينظرن الى الماء. الشمس تقبع على الأفق مثل طابة أضاعها طفل. إنساب الرجال على سطح البحر، ظهورهم كانت سكيتشات بيضاء في الضوء، برزت أنابيت التنفّس فوق الماء. عبر الأقنعة شاهدوا الأسماك وهي تتلوّن بالضوء البرتقاليّ، بإزرقاق الأشنات اللا معقول. فجأة إستدارت كاما وأمسكت بنانا من كتفيها بقوّة وهزّتها طويلاً.

- "ماذا تعتقدين أنّ أباك سيقول"، هتفت باستهجان، "صديقه العجوز يصير صهراً له؟ إنه أمر مستهجن".

وصلت هزّها لنانا التي لم تكن تعارض ذلك، فقط كانت

Twitter: @alqareah

تحدّق نحو أزهار المرغريتا فوق قبّعة كاما، والتي كانت تنط صاعدة نازلة.

- "توقّفي عن ذلك، يا كاما"، قالت مارثا، "ليس الأمر بهذا السوء".

أنزلت كاما يديها عن كتفي نانا ونظرت إليهما. ماذا فعلتُ؟ فكّرت بعد ذلك.

- "إنه بيتر الذي أفكّر به"، قالت هي، "الرجال يصبحون غريبين حينما يشعرون بتقدّم العمر".

إبتسمت مارثا لنانا من فوق الكتاب.

- "جيد أنّه ليس أنا"، قالت نانا.

Twitter: @alqareah

في تلك الليلة صعب النوم على بيتر النوم أيضاً. حاول تجنّب رؤية صورة نانا وبرنارد التي أزعجته بفحشها عبر مزجها بأفكار أكثر إعتياديّة وكأنها تداعيات لا تعني أحداً. أدار عينه نحو السقف الذي كان أسود وساكناً. تقلّبت مقلته. رأى التفّاحة على صولجان الملك تستدير.

الهواء قاتم ورطب من الليل، إلاّ أنّ القمر كان يتزحلق على الأفق. أبصر بيتر، بين المتفرجين الآخرين، الكاهنة الكبرى في ذات الحركة البطيئة يفرج ما بين ساقيه.

الزمن يستطيل. الزمن هو الغسق، فكّر بيتر. دفع الرجل الفقير بقرنه، بمنجله الهلاليّ في داخل الكاهنة. ببطء، بطقوسيّة، مثل حركة القمر فوق قوس السماء.

إنزلقت أعين المتفرّجين من الجرم السماويّ الى الكاهنة والرجل الفقير. فتح بيتر عينيه وأغلقهما. الدراما السماويّة تتواصل أمام عينيه. هجرة القمر. أمطار النُّطَف اللامعة التي أهَلت الهواء الساكن لوهلة قصيرة. هوت يد بيتر عائدة الى الملاءة. الأمطار ستجيء. الكاهنة الكبرى تهيمن على الطقس، النهار، الزمن. الأمطار ستجيء. النطف من الهواء، من سحائب قوس السماء. الأمطار ستجيء الآن.

ينهض الرجل الفقير من المذبح، حيث ما زالت الكاهنة

Twitter: @alqareah

الكبرى مضطجعة، ينهض نفسه ويعدو من الأحجار التي يقذفها المتفرجون نحو جسده. لن يكون بإمكانه الظهور ثانية في أور، فقد وسِمَ ختم إله القمر على بجهته. كلّ ما هو بشريّ سيخجل من لمسه. ليس سوى الأحجار يقذفونها نحوه لإبعاده عنهم، إبعاد كلّ ما هو شيء معه. لن يهمّه شيء، لقد قام بواجبه. الأمطار ستسقط.

ما زالت الكاهنة الكبرى مستلقية على المذبح، مشفراها يرتعشان أحمرين مثل حنجرة طائر.

جلس بيتر مشوّشاً في السرير. ينبغي أن يكون قد إستغرق في النوم. لم يمكنه أن يفهم ما الذي أيقظه. ثمّ دوّى قصف الرعد من جديد. كتم الهواء أنفاسه، حرّ خانق، مترقّب، كذلك كان بيتر يترقّب صوت المطر. لكنه لم يجيء. لاشيء سوى البرق والرعد يتدحرج جيئة وذهاباً فوق سطح السماء.

Twitter: @alqareah

- "إجلس هنا"، قال جيوفاني.

فلتجلس إذن وستمضي الأيام مثل نفثة ريح طويلة عابرة، فكّر آدم. جلس عند طاولة المقهى.، في الشمس، وسط الساحة. أمكنه أن يلاحظ أنّ جيوفاني كان مضطرباً، لكنه لم يفهم لم ذلك. يتوجّب عليهما قريباً الخروج للبحر وصيد السمك من جديد، سيساعد ذلك بالتأكيد في تحسين مزاج جيوفاني. كان آدم غائباً لبضعة أيّام فقط ويتوجّب على جيوفاني تفهّم ذلك. وضع آدم كاساً بين شفتيه، حافّة صلبة إلتقت بشرته اللّينة، المشروب البارد إنساب بطيشٍ مثل نفثة ريح.

- "أعتقد أنك تشرب طوال الوقت"، قال جيوفاني؟

هزّ آدم كتفيه، "إنّها الحرارة".

إنحنى جيوفاني فوق علبة مليئة بالصور، جلس ونقّب فيها. إنسابت نظرة آدم بطيئة، مهتزّة من وهج الشمس. وضع كاساً جديداً بين شفتيه. السائل كان بارد السخونة. وضع جيوفاني الصور التي في العلبة أمامه على الطاولة. المرأة التي في الصورة كانت تشبه روزا. شعر آدم بالغثيان. تحلّل وجه جيوفاني الى مثلثات ومربّعات تدور حول بعضها. الشمس بدت سوداء حينما رفع بصره الى الأعلى. عليه أن يظل جالساً. يمكن لليوم أن يختزل طريقه عبره كما يشاء، مثل خرائب يجوبها السائحون. يأتون يوماً بعد يومٍ من غير توقّف. لقد أبحر في زورق في عاصفة من الحرّ.

Twitter: @alqareah

فجأة إمتلأ شدق آدم بسائل لزج، وارتفع سريره عن الأرضيه وأطبق عليه. كان منتصباً أمام الجدار، أكيداً، ناعماً. أبحر مواصلاً إنسيابه في عاصفة الشمس. الرياح كانت محتشدة بأصواتٍ تتآلب عليه، تخنق قناته السمعيّة. يجب عليك يجب يجب، تهتف الأصوات.

عليه أن ينهض، والأيام ستمضي مثل نفثة ريح طويلة. إنها تشبه بعضها بعضاً فقط، الأيام، حشد أيام. باستطاعته أن يلفّ ويدور حول ذات الصباح المتشابه، وكانت تلك الطريقة التي يتشابه بها كلّ شيء، هي ما جعلته بارداً. غطس في فراشه الذي كان يهبط ثانية ويتقافز بنفاذ صبر من جوقة الأصوات. وأخيراً حلّت العتمة الملعونة الحاسمة. الأصوات تنضغط الى تمتمات وتنقشه بعيداً. بعدها كان في وسط صمت متصدّع كبير.

– "ينبغي أن يستجمع قواه"، قالت كاما لبيتر، "الأمر لا يحتمل بالنسبة لنا".

كانوا جالسين في المطبخ. ملابس جيوفاني المتجعّدة كانت تدور في ماكنة الغسيل، شخصيّاً كان هو متلفّعاً ببرنس حمّام بيتر ويزخرف جدران المطبخ بصور تلك المرأة التي تشبه روزا، الصور التي إلتقطها جيوفاني أثناء جولاته عبر الجزيرة.

– "إنها تتردّد غالباً على نابولي"، قال جيوفاني.

في إحدى الصور كانت تجلس عند طاولة مقهى وتحتسي القهوة. الحقيبة الحمراء الكبيرة كانت تقبع أمامها على الطاولة.

– "لقد تحدّثت مع العديد من باعة الحيوانات في الجزيرة،

Twitter: @alqareah

لكن لا أحد يعرفها هناك"، قال مواصلاً حديثه.

في صورة ثانية كانت تستلقي في مقعد إسترخاء عند ساحل الصخرة قرب المغارة الزرقاء. كانت بكامل ملابسها. لاحظ بيتر أنها ترتدي ذات الثياب في الصور كلّها.

قدمت مارثا الى المطبخ وجلست. كانت بالغة الإهتمام بالصور التي كان جيوفاني على وشك تعليقها.

- "وصلت رسالة إليكِ"، قالت كاما.

إستدارت مارثا وقلّبت المظروف. كان يحمل ختم بريد نابولي إنّما من دون إسم المرسل.

- "هل لديك معجبين؟"، سألتها كاما.

رفع بتر بصره. لم يكن ثمّة إعجاب في عينيه. تطلّع الى المظروف، الى الخطّ. إشتدّ فضول كاما، فيما كانت مارثا تقوم بشقّه. كان مكتوباً بخطٍّ صغير، مترنّح ذي فراغات كويله ما بين السطور. قلبت مارثا الورقة فأمكنها أن ترى التوقيع.

عزيزتي مارثا،

أعرف بأنّك تحترقين مثلي. أنا في نابولي الآن. أنا مختبئ رغم أنّ أحداً لم يكتشف سرقتي حتى الآن. غادرت منذ أسبوعين المتحف البريطانيّ ومعي كسرة إناء من حقبة جمدت نصر في حقيبتي. تلك الحقبة التي يعتقد والدك أنّ الكتابة نشأت فيها. كانت موجودة في سرداب المتحف، في صندوق مغلق كان نوتكين مسؤولاً عنه. مدير المتحف

Twitter: @alqareah

الآثاري في بغداد قد أوضح لي أنّه أرسل صندوقاً مليئاً بالقطع قبل ثلاثة أيام من إندلاع حرب الخليج، ولم يعرف على الإطلاق إن كانت قد إستلمت أم لا. قمت بوضع النقاط على الحروف. سمعة بريطانيا – "ماذا يفعل المرء؟". أخفوا الصندوق عن الأنظار، مكتوماً، مغلقاً، وكأن لم يستلمه أحد تقريباً. وضعت في الصندوق بدلاً من قطعة الفخار كرة قدم كانت في حقيبة رياضة كنت قد أريتها لحارس المدخل حينما دخلت. إنتظرت قبل أن أذهب لحين تبديل حرس المدخل. الحارس الجديد حرصت على مدى الأسبوع الأخير على أن أريه محتويات حقيبتي الرياضيّة وإقناعه بأنّي أدرّب فريق صبيان بعد الظهيرة. تظاهرت بأني على عجلة من أمري، سلّمت أمري للقدر، ضغطت على زرّ الكونترول ومضيت عبره، فأضاء القدر مصباحه الأخضر. إذن علينا الآن أن نواصل السير.

مثلما أكون قد أخبرتك بالتأكيد، فأنا عملت في مصنع أسطوانات الفاينيل البلاستيكيّة ذات مرّة. كان ذلك منذ عشر سنين، لكنّي عرفت منذ ذلك الوقت أنّ حزوز قطع الفخار التي تدور على عجلة الفخّارين تعمل بنفس الطريقة التي تعمل بها أسطوانة الفاينيل، وأننا إذا إستطعنا وضع الإبرة بشكل صحيح سيمكننا سماع ما يجري في مشغل الفخّارين، بذات الجودة التي يمكننا فيها سماع ما حدث في ستوديو البيتلز.

آخرون جرّبوا ذلك قبلي، لكن جون أن يفلحوا. إنّما لا أحد حتّى الآن قد جرّب ماسحاً مجسّماً الذي أنا متأكد من أنّه سيفضي الى نتيجة.

لقد إستأجرت شقّة في نابولي وأنا على وشك نصب الجهاز الآن ليمكنني تشغيل قطعة الفخار التي تعود الى أور.

Twitter: @alqareah

من خارج مكبّرات الصوت في صالة هذه الشقّة، في مدينة معاصرة، شيطانيّة، ستنبثق أصوات عمرها 6000 سنة.

المرّة الأولى التي ستُسمع فيها هذه الأصوات ستكون بمثابة حدث في حياة الإنسان. هل ستأتين، يا مارثا؟ يمكنك إحضار والدك معك، إذا كان راغباً في رؤيتي. أنا تفهمّ بالتأكيد أنّ من الصعب على المرء أن يشاهد نظريته تتهاوى أمام عينيه. لكن وجودكما معاً سيكون موضع سعادة بالنسبة إلي.

إتصلي صباحاً على رقم 08140235

تحياتي الحارّة

بيتروس أوتو هنريكسن

حينما قرأت مارثا رسالة بيتروس وسلّمتها الى بيتر مضت الى داخل حجرتها وكتبت في دفتر ملاحظاتها:

ربّما كان الحاضر حجراً مسطّحاً، أملس، أزيح بعيداً عن الماضي الذي كان هو ذاته حجراً، إنّما أشدّ عتمة، وأبرد، لأنّه كان مغطّى. أسفل قاع الزمن الإنسانيّ. الأفكار الكبيرة تكون كبيرة لأنها تنبثق من العدم.

فيما الزمن يتلوّى متقدّماً مثل دودة تتحوّل مخلوقاته المهجورة الى حجر.

ربّما كان السومريّون يرون الموت مثل مجاز، يشبه النفق الذي يحفرونه للمدافن، حيث يقف مئات الأشخاصٍ وهم يتجرعون السمّ. المجاز كان طريقاً لما بعد الحياة، ممشى ينبغي أن يحتوي

Twitter: @alqareah

الحياة. رواق الحياة.

الألوان الثلاثة التي تمضي من جديد، أحمر، أزرق، أبيض.

أهي الدّم، السماء، الشمس؟

Twitter: @alqareah

قصقص جيوفاني الرداء الأحمر عن كلّ صورة وألصق القطع على نافذته فتلوّن الضوء في الغرفة بالأحمر جراء انعكاسه على ثوبها. كانت تلك المرّة الأولى التي يقترب فيها من امرأة لهذه الدرجة، باستثناء أمه طبعاً. كانت أمّه امرأة ذات رجل لا تحبّه. جيوفاني وإخوته كانت ولادتهم أقرب للمعجزة، تقولها وتبكي. بعدها كان لا شيء. كانت تتنتهّد، حتّى أنّ ضرعيها الكبيرين كانا يتحرّكان صعوداً ونزولاً. لم يكن سوى طفل صغير ولا يفهم التبعات الملقاة على عاتق المرأة، كما كانت تقول. ينبغي على جيوفاني ألاّ ينتهي مثل أبيه. توجّب عليه أن يثبت ذلك في كلّ مرّة كانت تحمّمه فيها.

نافذة ملصقة بفساتين حمراء. بعيداً كان شعر المرأة الأحمر، كانت قبيل أن تستدير بجسدها تلقي برأسها بعيداً، وكأنّ ذلك يعني شيئاً، أن الرأس يأتي في البداية. يمكن لجيوفاني أن يعزله بعيداً. كان يستطيع.

عام جيوفاني في البحر، بحر النطف الزرقاء. تذكّر أنّه كان دائماً يبدأ بقلع ثيابه قبل أن يمضي الى الحمّام، يطويها بعناية مع بعضها ويضعها فوق المقعد الصغير المغطّى بجلد الخروف في زاوية الحمّام. ذات يوم حاول أن يتجاوزها ووقف بكامل ثيابه تحت الدوش، حينها قدمت الأمّ للتأكد من قدرته على ذلك. أحمرّ وجهها. الترقّب يفور في عينيها.

Twitter: @alqareah

- "هل هنالك شيء تريد إخفاءه عني؟".

هزّ جيوفاني رأسه وقلع الثياب المبلّلة عنه. فتّشت الأمّ جلده، حنجرته، عضوه بحثاً عن علامات. لم يكن هنالك من شيء، فمضت خارجة تهزّ رأسها وهي تحمل الثياب المبلّلة بيدها.

- "حاذر، يجب ألاّ تكون مثل والدك"، قالت عند عتبة الباب.

حاذر جيوفاني. لقد كان بيضة والأب هو الديك الذي يصيح خارج القشرة. كان الجدار بينهما رفيعاً وأبيض مكسوّاً بأغشية، أعصاب، لحم. مسافة من جدار متفسّخ، مجرَّح.

Twitter: @alqareah

إن كان ثمّة إله"، فكّرت مارثا، هل سيكون ذلك الذي يعرف خبايا لا وعينا وقصّ حكاياته علينا في اليوم الذي نموت فيه؟

جلست مارثا على تحت خشبيّ صلب في بهو البلديّة وهي تتمعّن في أختها الذي كانت تمسك بيد برنارد أمام امرأة متلعثمة، بدينة، كانت تقلبّ في أوراقهما وتتهجّى إسمي نانا وبرنارد حرفاً حرفاً حتى أصبحا غير مفهومين. الصالة كانت باردة رغم الحرارة العالية في الخارج، النوافذ الصغيرة كانت مركونة بعيدة ونائية، تحتهما كان كان ثمّة إفريز ينساب مقشّر، أزرق، حيث يمكن للمرء أن يأخذ فكرة ما عن سير السنة. من الوراء كان يطلّ رسم فيزوف على جدران الكلس. مخروط خالص في وسط السهل. زقّورة أخرى، فكّرت مارثا.

كانت نانا ترتدي فستاناً ملتصقاً أصفر أطبقته بزرّين من أمام ولفّت وشاحاً أزرق حول بطنها لكي يمكن للمرء رؤية الإنتفاخ المبهم فوق بطنها بوضوح.

لماذا تفعل ذلك هنا؟ فكّرت مارثا. ماذا ستجني من ذلك؟

أحد ما بدأ بتشغيل سيمفونية بيتهوفن التاسعة. المرأة التي كانت تتلو مراسيم الزواج إستدارت ونبّشت بشكل محموم في حقيبتها والتقطت هاتفها النقّال. اصطخبت الموسيقى عبر الصالة الى أن استطاعت المرأة إقفال الجهاز. نسيت كاما أن تنشق، الأمر الذي جعلها تخلّ بواجبها. آدم يقبع على التخت خلف الآخرين

Twitter: @alqareah

والصداع يمزقه. كان متضايقاً من عدم استطاعته العوم مع جيوفاني هذا الصباح. كان يحسّ بجسده مثل قطعة صلصال قذفت على سقالة، ولم يكن يفهم كيف يمكن لها أن تعوم. بسط ذراعيه الى الأمام فأصاب رأس بيتر. لم يستدر بيتر الى الوراء، كان يحدّق الى الأسفل ويتفحّص الإرتفاع الصغير الذي صنعه عضوه في البنطال.

هل يمكنني أن أتزوّج من جديد؟ فكّر. مع فتاة شابّة مثل نانا أو مارثا؟ مع جويندولن؟ أبهجته الفكرة.

بعد انتهاء المراسيم عادوا جميعاً الى المنزل.

- "يجب أن تعذروني"، قالت نانا، "أشعر بشيء من الغثيان".

تبعها برنارد الى غرفتها فوق. أخرجت كاما كعكة العرس المرتفعة من الورق ووضعتها في منتصف الطاولة.

Twitter: @alqareah

قطن بيتروس في زقاق ضيّق في أعتق أحياء نابولي. كان ثمّة شرفات حديديّة للمنازل وثياب غسيل معلّقة فوق الجادّة، خطوط تتقاطع مع بعضها. لكن بيتروس لم يكن يعتقد أن ذلك كان رومانسيّاً. لم يكن يتطلّع لما حوله ولا يستنشق روائح الفضلات المنبعثة من البالوعات. لم يكن مكترثاً للملابس القذرة والجسد المتّسخ للصبيّ الذي كان يقف أمامه حاملاً زوج حذاء جديد متألّق من ماركة "أديداس" في يده. خلف الصبيّ وقف عدّة صبيان، كانوا إثني عشر صبيّاً تقريباً.

- "أنظر إن كان هذا على مقاسك"، قالها بيتروس بإيطاليّة سليمة القواعد لا تناسب واقع الحال.

جرّب الصبيّ الحذاء فيما كان الآخرون يتطلعون إليه. كان ضيّقاً. إستدار بيتروس نحو حقيبة كانت تقبع على الرصيف وتناول منها زوج حذاء مطاطيّ أكبر حجماً. وضع الصبيّ قدميه فيه، هزّ بيتروس برأسه وأعطى زوج الحذاء الأوّل لصبيٍّ أصغر كان يقف في الطابور.

واحداً بعد واحد حصلوا على أحذية. آخرهم كان من نصيبه حذاء أكبر قليلاً من قدمه لكنّه كان يعتقد أن لا أهمية للأمر.

- "أكبر ولا أصغر"، قال بيتروس وذكّر نفسه أن يبتسم للصبيان. زحفوا على الأقدامهم. من كان يمتلك جيوباً منهم دسّ يديه فيها.

Twitter: @alqareah

- "أنتم دائماً في الجادّة هنا"، قال بيتروس، "يجب أن يكون بعضكم دائماً هنا في الجادّة. هل تفهمون؟".

تطلّع الصبيان نحوه بعيون جادّة، لامعة.

- :بعد الظهيرة سيصلني ضيوف"، واصل بيتروس لافظاً الكلمات بطيئة، دقيقة. "رجل كبير وفتاة شابّة. هؤلاء أنا دعوتهما. عدا ذلك يجب أن تعلموا على أن لا أحد، لا أحد على الإطلاق، يدخل في شقّتي. لا أحد من ذويكم، فيما إذا إجتاحهم الفضول. لا لصوص، لا شرطة. مفهوم؟".

هذه المرّة هزّ الضبيان رؤوسهم.

- "حسناً"، قال لهم، "إنصرفوا الآن".

هرول الصبيان مبتعدين. ولج بيتروس مباشرة من الزقاق الى داخل شقّة كبيرة، جرداء. في إحدى الغرفتين ذاتي السقف المربّع الشاهق لم يكن سوى طاولة ينتصب فوقها ماسح ثلاثيّ الأبعاد يبرز قطبه الى الخارج، وأمامه ثمّة أسطوانة غرامافون، والى جانب الطاولة وعاء فخاريّ وحاسوب متصل بالماسح ومكبرتا صوت. أمام الطاولة صفّت أربعة كراسي جنباً الى جنب. في الغرفة الثانية كان سرير نقّال وحقيبة على الأرضيّة، عند حافة النافذة المطلة على الفناء تقبع كتب مرزومة، أما النافذة ذاتها فقد كانت مغطاة بورق جرائد.

مضى بيتروس الى المطبخ وقطع قطعة خبز ووضع سجقاً وزيتوناً في أحد الصحون. جرس الباب يدقّ، وضع الصحن على الأرضيّة وفتح الباب لبيتر ومارثا. خلفهما كانت تتحلّق مجموعة صبيان كانت تبحلق في بيتروس حينما فتح الباب.

Twitter: @alqareah

- "تفضّلا بالدخول"، هتف بيتروس، "كلّ شيء تمام"، قال موجّهاً حديثه للصبيان، "لكن لا تدعوا آخرين يدخلون".

- "هل كان ذلك أنت الذي أعطاهم أحذية جديدة؟"، سألته مارثا.

- "بلى!"، أجاب بيتروس.

وجود بيتر جعله عصبيّاً. لم يقل حتى مرحباً، بل مضى مباشرة الى الوعاء الفخاريّ، قلّبه وأداره بين يديه فيما كان يقطّب حاجبيه.

- "قطعة كاملة"، قال بيتروس مبرّراً، "وإلاّ فلن يكون للأمر معنى".

وضع بيتر وعاء الفخار جانباً.

- "بلى، بلى. لكنّي مندهش من قناعتك بإمكانيّة تشغيلها. لقد حاول ذلك الكثيرون من قبلك لكن الحظّ لم يكن حليفهم".

- "لا أحد حاول ذلك بمثل هذه. أنا إستخدمتُ ماسحاً مجسّماً ذي ذراع دوّارة تدير شعار ليزر حول الوعاء الفخاريّ. بعد ذلك يقوم الماسح بقراءة التموّجات فوق سطح الوعاء وتبثّ تيّاراً معلوماتيّاً رقميّاً الى داخل الحاسوب الذي يقوم، عبر برنامج خاصّ بالصوت، بترشيح الخدوش الأسوأ وما شاكلها بمساعدة مصفاة صوتيّة، ثمّ يباشر ببثّ الآثار الصوتيّة المودعة على سطح الوعاء حينما كان يدور. لقد إخترت أن أدير الوعاء بدلاً من الذراع، إذ يمكنني بذلك مقاربة السرعة التي كان يدير بها الفخّار العجلة بواسطة قدمه".

تطلّع بيتر إليه متعاطفاً، مشجّعاً، كما إعتاد أن يفعل مع طلاّبه الذين يلقون محاضرات.

Twitter: @alqareah

شرعت مارثا تلقائيّاً بالتهام الزيتون الذي كان في صحن على الأرضيّة. تنازل بيتروس الوعاء الذي كان سميناً وقهوائيّ اللون ذي نقش رهيف، أبيض، متعرّج حول العنق، ثمّ وضعه فوق إسطوانة التدوير أمام شعاع الليزر المنبعث من الماسح الضوئيّ المجسّم. شغّل الحاسوب فانبثق خيط الشعاع الأحمر عبر الهواء وانتهى الى نقطة عند أسفل الوعاء. بثلاث حركات دراماتيكيّة قام بتشغيل أسطوانة التدوير، الحاسوب ورفع من حدّة الصوت، فشرع الوعاء بالدوران.

Twitter: @alqareah

تحته كان الهواء، تحت الهواء كانت الطيور. تحت الطيور الهواء، تحت الهواء الصخور. تحت الصخور البحر.

تخيّل آدم نفسه جسداً سابحاً في الهواء، جسداً يحتضن الصخور، الأمواج وينغمر في البحر. تخيّل أسماكاً تتهافت حول جثّته. تردّد. تحته الهواء، تحت الهواء الطيور.

إنتصب آدم فوق جبل مونتي سولارو، حافّة محصّنة فوق كابري، سلاح من صخرة. وقف على مبعدة متر من الموضع الذي تشطر فيه الصخرة الهواء ونظر الى أسفل. في الأعلى كانت الطيور الكبيرة السوداء. بعيداً في الأسفل كانت النوارس تحلّق بتوءدة، سيّدة الهواء، فاردة أجنحتها الساكنة. إشتهى حركة طيرانها المنساب. كان آدم يعرف أنّ سقوطه سيكون سريعاً وفوضويّاً. سينساب الدّم من أذنيه، فكّر بذلك. لكن هل سيكون ذلك قبل أو بعد السقطة، فلم أعد أستطيع الإحساس بشيء؟

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

سومر، مدينة أور، سنة 3350 ق.م

تحته كان الهواء. تحت الهواء كانت الطيور.

تحت الطيور، الهواء، تحت الهواء، الحجر. تحت الأحجار الماء، النهر الذي يجري، أمواجه المتلاطمة، إنثيال الربيع، زوارق مستطيلة، أسماك تقضم نتفاً من جثّة كلب.

آدائم، كاهن – مي، الذي يعرف قوى العالم ويستقريء أحشاء القرابين المذبوحة، يقف على أعلى درجة في سلّم المعبد. أمام ناظريه ينبسط السهل المستوي بالمذبح المقام على قمّة برج المعبد، حيث الهواء يقترب من من رئة الآله. فوق المذبح خروف يحترق. قطع آدائم الكبد عن الخروف فانساب الدم على غضون يده وخطوطها. كان يعرف ما يعني ذلك: تفحّص خطوط يدك، إقرأ قَدَرك. لكنّه لم يقرأها. أصابه التردّد. ما هو كائن فليكن.

ما ليس بكائن، أشاح آدائم ناظريه عن الكآبة التي تصيبه حين يفكّر بما هو ليس بكائن. شرع بدلاً من ذلك بتأمّل إنفلاقات الكبد، تدفّق الأوردة. العقد الصغيرة فوق السطح.

أسفل آدائم تمتد السلالم. تحت الهواء، الطيور. إبحار ملوكيّ. برج المعبد يشقّ الهواء، يشقّ النهر. الماء ينساب، جروف نهر مقوّسة، سدود. المرأة، التي كان آدائم يعشق، أبحرت في قارب الدفن. سنون عديدة مضت على غيابها، يداه المدفونتان في

Twitter: @alqareah

الأحشاء لم تعدا تدفنان بين أحضانها. العقد الصغيرة، الإنفلاقات، الباطن الرطب.

أدار آدائم ظهره لذلك لكي لا يرى موتها. بعد ذلك توسّل للملك لكي يسمح له بأن يكون مخصيّاً. الجميع يعرف كم كانت معرفته شاسعة لمعاني الشوائب، العقد وتدفّق الأوردة في أحشاء الحيوانات.

- "لكن لديك أطفال!"، قال الرجال في مجلس المدينة، "كيف يمكننا أن نعرف بأنّك لا تريد أن تصبح ملكاً؟ أن لا تشتهي رؤية إبنك على العرش؟".

أعلن بأنّ كلّ رغبة ذهبت بذهابها. صدّقوه. كان مخلصاً للملك، برغبته التي أخصيت بصراخها، بلحمها الذي لم يأبى أن ينفتح لطفل يحاول الخروج الى العالم منه.

فكّك آدائم كلّ ما يمكن تفكيكه في البيت، أكّد ذلك للمجلس. الثياب حُلّت، مصاريع النوافذ أنتزعت من مفاصلها، أنزل الصنانير، ألقى المفاتيح في الجادّة، وضع كلّ الأشياء اللامعة أمام حضنها ليثير فضول الطفل فينظر إليها. نظراتها كانت صافية، آلام مطبقة، وتنّفسها يتقطّع في الهواء.

هناك كانت هي، ولم تعد كذلك، وآدائم لاحظ أن الطفل ما زال يتحرّك. أمرَ المولّدة أن تشقّ الطريق للطفل. تركوه يرضع من صدر الأمّ قبل أن يحملوه بعيداً.

مارس آدائم نشاطه بتلقائيّة وفتور. الماء يسيل تحته في النهر. الأطفال يستحمّون قليلاً تحت ظلال برج المعبد. قرأ الكبد الذي كان في يده، علامة علامة، ثمّ نادى على الرسول. أصغى الملك

Twitter: @alqareah

الى كلماته. رجال البلاط ومجلس المدينة ناقشوا الأمر معه. كان يرى، وكان حيّ الضمير. رغباته انطفأت، عدا أمنيته بأن يكون الماضي قد تشكّل بشكل مختلف، وأن تكون تحثّ خطاها الآن بين حشود الناس في الشارع.

– "أوصل البلاغ الى الملك"، قال للرسول، "قل له أن قربان اليوم كان رحيماً. وكذلك في اليوم الذي تغيب فيه الشمس عن أور ذاتها فإنها ستشرق عليها من جديد. نجوم المساء ستأتي، يمكن للملك أن ينام قرير العين في قصره.

بعدها رمى آدائم بالكبد في النار وتأمّل الدخان المنبعث. الرسول ينتظر وراءه. إمتلأت الكبد بالهواء في مثانة، المثانة انفجرت وقذفت بالكبد من فوق المذبح على البلاطات، بعدها ارتعشت أمام قدميه. التقط آدائم الكبد الساخنة عن الأرض. إستدار نحو خادم المعبد الذي كان يقف الى جانبه حاملاً الماء والزيت في إباريق كبيرة.

– "هل حدث أمرٌ لم أبلَّغ به؟".

هزّ الخادم رأسه. سمعا بعدها خطوات متراكضة فوق السلّم. انتظر آدائم هادئاً والكبد في يده. أضحى بارداً من الآن. كان أسود، متفحّماً، ولاحظ أنّه قد توسّخ ولم يلحظ الديدان التي كانت في داخله والتي دفعتها الحرارة الى الخروج الى سطح الكبد.

الرسول واقف يلهث. انحنى لآدائم وتحدّث فيما كان ينظر نحو الأرض.

– "أنا أحمل بلاغاً. الملك يقول: قل لآدائم أنّ الكاهنة الكبرى توفّيت فجأة. لم تستيقظ من نومها، رغم شبابها. ماذا يعني

Twitter: @alqareah

ذلك؟ الملك يسأل. إنها لم تكرّس الى منصبها بعد، لم تحتفل برأس السنة مع إله القمر".

الديدان تثقب طريقها عبر لحم الكبد المتفحّم، البارد.

- "قل للملك أنني، آدائم، أقول ما يلي: شياطين العالم السفليّ، القادمة من كور، قد استعدّت. سوف تطبق على أور إذا لم تؤدّي الكاهنة الكبرى واجباتها يجب عليها تأدية الطقس، حيّة كانت أم ميّتة. عسى أن ترافقها نانا في العالم الآخر".

- "قل للملك"، واصل آدائم، "احفروا قبرها هذا اليوم، دعوه يسترح يوماً واحداً ثم أمنحوها من يرفقها من الناس والحيوان. يجب ألاّ يعوزها شيء. يجب أن تنشد لها الأغاني على أنغام القيائر التي يجب ألاّ تتوقّف قبل انتهاء جماع نانا معها".

هرول الرسول نازلاً السلالم. أعاد آدائم الكبد بحرص الى المذبح وواصل التحديق به فيما كان يحترق، الديدان الصغيرة تتنّت وتفحّمت.

- "هكذا"، قال آدائم، "سيكون هذا كافياً. نستطيع إجبار شياطين الديدان على العودة الى أرض الظلال".

غسل خادم المعبد يديه بالماء من الإبريق وأهرق الزيت على قدميه. بعدها ذهبا هابطين درجات برج المعبد المائة.

Twitter: @alqareah

سارت ماجش عبر المنزل. إنّه أفضل من الحديقة، تعتقد هي. الممشى الطويل، حيث الضوء يدخل من الأعلى عبر الروازين النجميّة الشكل، والغرف المجصّصة ذات السقوف العالية. مضت من غرفة لأخرى وفي يدها سجادة انتزعتها عن النول وأرادت تعليقها على جدار.

كانت سجادة لم يرها أحد حينما كانت تنسجها. حتى ولا إنكسيلوب، زوجها. ولا تانيا، أختها الصغيرة التي كادت تخرّقها بسكّين.

لم تكن يشبه أيّ سجّادة أخرى تعرفها ماجش. الألوان فيها مضيئة، صفراء، حمراء شاحب، زرقاء فاقعة، وماذا يمثّل ذلك، أمرٌ لا تدركه. صديقاتها سيزعمن أنها لا تمثّل شيئاً، أانّ ماجش كانت تسخر من النماذج التي تنسج على منوالها السجاجيد. لكنّها تمثّل شيئاً، ماجش تعرف جيّداً أنّ ليس في أمكانها أن تقرّر ما هو. ضوء محدّد يسقط داخل منزلها. هواء خاص عند المساء، حينما تكون الشمس قد غربت وهي تسقي النباتات على الطاق. نظرة معيّنة، يمكن أن تتألق بها عين إنكسيلوب، مثلما الرغبة، مثل أصبع يغطس في ماء.

حاكت ماجش السجّادة أثناء الليل حينما كان الطفل يرفض أن ينام. كانت تضعه في حجرها وتجلس عند النول وتؤجّج الألوان دخولاً وخروجاً في ثنايا السَّداة، وينام الطفل على الإيقاع، فتكون

Twitter: @alqareah

الصور صدى للغضب من الطفل الأرِق. لكن أيضاً لتنفّس الصبيّة حينما تزفر باتجاه جلد ماجش. ونظرتها، كانت مثل النهر.

نسجت ماجش الماء الذي يجري في النهر. الماء الذي على السجادة لم يكن أزرق ولا حتى أبيض. الخيوط الطويلة الحازمة من الأصفر والأخضر كانت تسحب بعضها الى أمام. ثمّة حجر رماديّ تنساب الخيوط فوقه. ثمّة تعرّجات، دوّامات، ضوء متموّج صنعته من صوف بلا لون. حاولت أن تنسج كلّ ما هو حولها. الأصوات التي تسمعها، الرافعات عند النهر، التي كانت تصرّ حينما تدور عجلاتها. خطوات النساء السريعة حينما يحملن السلال الفارغة الى السوق. الأيادي التي تصفّق في الجادّة. المطر حينما يهطل أخيراً. الريح التي كانت تتوق إليها دائماً.

نظرت ماجش الى السجادة من جديد.

ربما كانت الريح هي ما نسجتُها، فكّرت هي. ربّما، إذا تراجعت خطوتين الى الوراء ستبدو كذلك. إنها تموّجَ النهر، تموّجَ الرمل في الصحراء خلف الحقول التي جعلتها صفراء فاقعة.

هزّت رأسها راضية. لم تكن على بيّنة من ذلك قبلاً. لكنها جالسة عند النول، أمام نافذة مفتوحة أثناء الليل، رسمت الريح التي تقدم من الصحراء وتكوي ثنايا المدينة. إسمها كان يعني "ليلة بلا ريح". كانت بحاجة إليها لتتجاوز نفسها.

علّقت ماجش السجّادة في غرفة النوم ليمكنها أن تراها من سريرها. الغرفة كانت واسعة وبيضاء، جعلت السجّادة من الحيطان تبدو أعلى ومنتصبة ومتقوّسة.

هكذا يكون أفضل، فكّرت ماجش. هكذا أريد بيتي أن يكون.

Twitter: @alqareah

- "يعوزكم الملح من جديد"، هتفت النسوة من داخل المطبخ.

كانن قد قدمن الى منزل آدائم لصنع الخبز. كنّ على عجلة من أمرهنّ؟ ينبغي أن ينتهين قبيل الدفن العظيم. النساء يطحنّ القمح في الغرفة المقابلة للمطبخ. كانن قد نقّبن فيما كان ما يحتجن إليه متوفراً وها هن الآن يصرخن في الفناء.

- "يعوزكم الملح من جديد"،

مارثا، إبنة آدائم الصغرى، عجّلت بالنزول على الدرج من غرفتها.

- "أنا أجلبه"، قالت لاهثة فيما كانت تسمع أختها إنكازو وهي تصارع القفل في الحمّام.

- "أنا ذاهبة"، هتفت مارثا بحماس، "أنا أجلبه".

ولجت مارثا الى حجرة آدائم، حيث صندوق النقود يقبع. دسّت قطعة فضّة هلاليّة في جيبها ووضعت فوقها خرقة قماش، مثلّما علّمها آدائم، لكي لا يسهل على أحد مدّ يده الى القطعة. بعدها وضعت شالاً على رأسها ونادت على النساء بأنّها ستعجّل في ذلك ورجت من سامس، خادم المنزل، أن يفتح الباب.

مدّ سامس يده وداعب مفصل إصبعها الأعلى.

- "لا تتأخري كثيراً. يجب أن يستخدموا الملح".

سحبت مارثا يدها إليها ثمّ خرجت بعد ذلك الى الجادّة.

Twitter: @alqareah

كان المنزل كبيراً وبارداً، غرفة معتمة وعميقة، لكن في الجادّة الضيّقة ضربت الشمس وجه مارثا، في البدء الضوء، ثمّ الحرارة.

سحبت نفساً عميقاً. نظراتها تمضي صاعدة ونازلة على امتداد الجادّة لقنص ما يحدث هناك. عليها أن تجرّب شيئاً طالما هي في الخارج.

اليوم في البيت طويل. الطعام يجب أن يُجهَّز. القماش ينبغي أن يحاك. العبيد أُبلغوا بطبيعة العمل الذي ينبغي عليهم إنجازه. فقط حينما يحتاجون لشيء فإنها تغادر المنزل، وأثناء الربيع، حينما تخدم في بهو النسيج في المعبد.

مضت مارثا في البدء في إثر رجل من مدينة أخرى، كان يعتمر قبّعة مثلّثة خضراء على رأسه وريشاً معلّقاً على كتفيه. كان على حماره سلّة مليئة بالأحجار من كلا الجانبين ويملأ الجادّة. كان لمارثا من الوقت ليمكنها تفحّص ظهر الرجل العاري وسرواله الأخضر الذي كان مثل قبّعته يشكّل مثلّثاً.

وصلوا الى جادّة أوسع فانسلت مارثا عبره هو وحماره وتجاوزتهما. هنالك كان يجلس بعض سكّان الأهوار تحت ظلال سقف قصبيّ وهو ينسجون السلال في أشكال مختلفة. عند جدار المعبد تركت يدها تنزلق فوق سبائك الصلصال المدوّرة، الملوّنة، التي تشكّل صوراً مضطربة على جدران المعبد. عجّلت باجتياز مشغل الفخّار عند النهر، حيث الفرن الساخن أشدّ وطأة من الشمس، واجتازت مصهر البرونز، حيث كانت السكاكين معلّقة في صفوف طويلة. لم تكن تميل للمعدن الحادّ. عند البوابة المفضية الى المعبد يقف الحرس مطوّقين بشريط ذهبيّ صغير حول جباههم

Twitter: @alqareah

في قمصان قصيرة صفراء تعود الى المعبد. بودّها أن تدخل وترى فيما إذا كان هناك أحد تعرفه. لكن عليها أن تعجّل بأمرها. أخيراً وصلت الى الميدان الذي أمام بوّابة المدينة الكبيرة، حيث البقّالون يبيعون ملحهم.

أكداس الملح المتلألئة تقبع على الأرض على امتداد سور المدينة الخارجيّ، فدسّت مارثا يدها في جيبها وأمسكت بقطعة النقد، لكنّها توقّفت. ثمّة أمر ما يجري في الميدان لم تره من قبل. ثمّة رجلان يسيران مترنّحين فوق خشبتين عاليتين. فتاتان تعزفان على مزامير صخّابة، الأنغام كانت غريبة، حازّة، وحينما اقتربت مارثا أكثر لاحظت حيواناً أشعر داكن يرقص بشكل أخرق وشرود على تلك الأنغام الغريبة. كان الدبّ بلا أسنان. الفتاة، التي تمسك به في سلسلة، كانت تحرّك جسدها وكأنها مفكّكة المفاصل، رأسها يرتمي الى الوراء ويلامس عقبيها، يداها تنبثقان عبر سيقانها مثل زهرة ليل شمعيّة. تمايلت مارثا. فكّرت بأنها لم تكن قد رأت شيئاً من قبل، قبل أن ترى هذا. ينبغي أن يكون هذا الرقص منحدراً من نباتات الصحراء المتلوّية. ولجت الى داخل الحشد المتجمهر. كان الرجلان يقذفان أكياساً صغيرة الى بعضهما البعض فوق. دفعت حركة الحشود بمارثا الى الأمام فأصبحت في المقدمة، وفجأة سقط أحد الرجلين عن خشبته، وفيما كان يسقط قفز الدبّ جانباً ليتجنّب جسده فتراجع الى الخلف بكامل جسدة الأشعر نحو مارثا، إستدار ولامس فمها بخطمه البارد. سحب بعدها الى حيث كانت الفتاة ثانية. لكنّه كان هناك بمداعبته. عجلت مارثا بالابتعاد. شعرت بوخزات في جلدها، على خديها.أملت ألاّ يكون أحد

Twitter: @alqareah

يعرفها قد أبصر الخطم المبلّل، البارد، يندفع نحو فمها، مثل تلك القبلة التي لم تنلها حتى الآن. القبلة التي حلمت بها، وكان هذا الدبّ قد حقّقها.

ركضت مارثا مسرعة بكيس الملح. حضنته بين ذراعيها وهرولت عائدة من طريق آخر، عبر الأزقّة المعتمة بين المنازل المأهولة خلف المعبد. كان طريقاً سريعاً، لكن مضجراً.

فتح سامس الباب دون أن يعلّق على تأخرها. أعطت كيس الملح الى النساء في المطبخ. دخلت الى غرفة المخزن وجلبت الجفنة الفخار الكبيرة التي سيخبز فيها الخبز. ثم هرولت الى غرفتها والقت بنفسها على السرير. كان إنكازو تتمرّن في غرفتها القريبة منها على ترنيمة مرفوعة الى إينانا إبنة نانا. لو أنّ بإمكان إنكازو فقط أن تصمت ولا تغنّي على الدوام، أو تتحدّث عن رأيها بهذا الأمر أو ذاك. ضحكت مارثا بهيستيريّة، لم يكن بامكانها التوقّف. بعد كلّ ما حلمت به عن القبلة الأولى يحصل هذا. مخلوق أخرق، أشعر، خطم بارد. لم تكن هناك حاجة لوجودها.

Twitter: @alqareah

تمرّنت إنجكازا على نشيد إينانا، إبنة الثور السماويّ القويّ الذي يطعن قرنه السماء. قرن إينانا من ناحية أخرى هو عضوها، قوس الرغبة بين فخذيها. هلال الجنس. و إنجكازا، التي أختيرت بالقُرعة من بين عذراوات المدينة، كانت تتمتم بالأغنية التي ستنشدها في جنازة الكاهنة الكبرى.

آه، أيتها السيدّة، قيثار الأغنية الحزينة يملأ الفضاء

الى أن يكون صوت أغنيتي المقدّسة مستعداً لأن يموت.

كان آدائم قد أبلغها ما عليها أن تفعله. سيبدأ رجل من الجهة الأخرى في الميدان بإنشاد أغنية نانا، فيما تقبل إنجكازا باتجاهه وهي تنشد أغنية إينانا. في طريقين عليهما المسير مجتازين بعضهما.

الكاهنة تمّ دفنها. كلّ شيء سار بسرعة مخيفة. الآن يتوجّب على الخادمات، منزلقات مع الحوذيّ، منشدات مع الكاهنات الأصغر سنّاً وعازفي القياثر، أن يتبعنها. إنجكازا ستغنّي العتمة التي في دواخلهم. عليها ألاّ تظهر نفسها في فناء المعبد قبل أن يكون جميع من هبط الى المنحدر قد دفنوا في أعماق الأرض.

ثبّتت العبدة الباروكة السوداء على رأس إنجكازا، وفوق الباروكة وضعت الفتاة إكليل زهور ذهبيّ. الزهور في الحياة التي ستنبثق من سطح الأرض المغطّى بالظلال. ثبّت العبدة القماش

Twitter: @alqareah

حول جسد إنجكازا بمشبك ذهبيّ على طرف إحدى كتفيها. الثوب كان ملوّناً بألوان الكواكب الخمسة التي تقع في حلقة حول بعضها. كان ثقيلاً ويصرّ صريراً خفيفاً حينما تحرّك إنجكازا نفسها والعرق يتصبّب منها.

شربت إنجكازا قدحاً من الماء وتطلّعت الى الخارج نحو فناء المعبد الذي يمتدّ دافئاً كالعسل أمام ناظريها. أحدحرّاس البوّابة يبعث بإشارة. وضعت الفتيات اللواتي في القبر أصابعهنّ على أوتار القياثر. لا يعود بإمكان المرء أن يرى الموكب، فقط يسمع النغمة العميقة والخفيفة وهي تتصاعد في اضطراب.

سارت إنجكازا برصانة نحو فناة المعبد. إذا حدث وإن تعثّرت فستقوم مارثا بإهانتها لعدّة شهور. الضوء شديد هنا قبيل غروب الشمس التي كانت تسطع أفقيّاً بين دعائم الفناء وتصنع فراغات بين الظلال الطويلة الصافية بصورة غير طبيعية.

يشبه برج المعبد فراشة متعدّدة الألوان استوطنت الصحراء. الصوت الوحيد، الذي يصل الى مسامع إنجكازا كان الخوار المنبعث من المخلوقات التي دفعت الى داخل الخندق المعتم، حيث كان أحد الكهنة قد تزيّا بزيّ السمكة الحكيمة أوانيس وشرع بسكب السمّ في الأقداح الفضّية التي يحملها الجميع بيده. حينما يقدم إله القمر نانا عند الغروب الى سرير كاهنتهم يجب أن يملأوا الأقداح الفضّية بماء مقدّس ويسكبونه فوق الزوجين المتعاشقين. لقد أخبروهم بذلك، ولا أحد يتردّد، الجميع سيشرب السمّ. قدرهم في الحياة قد وصل نهايته، والآن أمامهم حياة أخرى سيحصلون عليها.

Twitter: @alqareah

إنجكازا تعرف أنّ هنالك الآلاف من البشر يقفون حول القبر متابعين الموكب الذهبيّ المتألق فيما كان يتحرّك الى داخل حفرة القبر، لكنها لم تكن تسمع سوى شكوى الحيوانات. بعدها مضت عبر البوابة التي تعطي شعوراً عابراً بالظلال، وهي الآن تتطلع نحو جوقة الناس وتسمع القيثارين وهما يعزفان من الحفرة نغماً شبيهاً بجسد القمر ذاته. في تغيّر مستمرّ. كاملاً وممتلئاً وساطعاً وبعدها ينسحب عائداً الى نغمة الضوء الأرفع والأبسط ليمكن بعدها العودة ثانية والإنتشار. الموكب ينتظر مثل يرقة فراشة يحفر لنفسها ثقباً في الأرض، فيما النغم يتصاعد نحو السماء الداكنة الزرقة التي انفصلت عن الأرض وصارت صفحة ماء البحر السماويّ.

إنسابت إنجكازا وسط ضوء الشمس الذهبيّ الغاطس، فيما كانت حشود الناس صامتة تنتظر. شرعت بأغنية حزن إينانا حول الحياة المعلّقة في خيط القدر الرفيع بين الظلام والضوء. أنشد الرجل الشابّ أغنية نانا، فيما كانت هي تحاول ألاّ تصغي إليه لكي يبدو صوتهيما مثل نجمتين مستقلتين.

صوت الأوتار يستمرّ ويصير أضعف لأنّ خدم المعبد شرعوا بإهالة التراب في الحفرة. النغمة المنبعثة من القبر كادت تموت تقريباً، لكن فجأة إنطلقت أوتار عازفي القياثر الثلاثة الذين كانوا يقفون عند السور، الموسيقى تتواصل، بلا انقطاع، فيما كان الموكب في حفرة القبر يختنق. لم يقاطع الموت الموسيقى التي ستصدح دائماً. في القبر خرس خوار الحيوانات. طغى صوت القياثر في فناء المعبد. أنشدت أصوات الآف الناس المتجمهرة في حشود الأبيات الأخيرة من أغنية إينانا.

Twitter: @alqareah

لقد أنجزت لك. دون انقطاع. سطر واحد من غير كسر ولا توقّف، فكّرت إنجكازا وهي تتنفس الصعداء. الصوت يشدّها الى الحياة. صبايا المعبد الصغيرات يهلن الحليب في أوعية كبيرة من أبقار نانا. الناس يشربون ويمضون. الحياة تستمرّ. دون انقطاع. دون كسر.

حملت إنجكازا قدح حليب معها الى قمّة برج المعبد ووضعته عند طاولة نانا الذهبيّة. البلاد تغرق في العتمة. وضعتها قدمها بحذر على الدرجات في الظلام. المدينة هادئة تحتها. بيوت قليلة فقط يتّقد فيها الضوء. الحانات وصالات الشرب أغلقت. أصاب إنجكازا شعور مرعب بأنّ أحداً سيلقي بنفسه فوقها. كانت في منتصف طريق النزول من سلّم المعبد والريح تعصف على وجهها، قوية ومفعمة بالرطوبة. لماذا ليس هناك من أحد بانتظارها؟ جلست على درجة السلّم مثل طفل ووثبت الى أسفل الى أن وصلت الى الميدان الممتد تحت برج المعبد. عجّلت بسيرها عبر الشوارع الخالية من المارّة. إنه ليل ونهار. قبل قليل كانت وسط جمهرة من الناس، الآن ليس سوى الحجر والطين على الجانبين، فهرولت مبتعدة الى أن صولت الى جادة بيتها وأبصرت على مسافة قصيرة شبحاً يمضي بجلال وتردّد.

– "أبي؟"، نادت عليه.

إستدار آدائم.

– "آه، هذه أنتِ"، قال لها، "عجّلي الآن".

Twitter: @alqareah

يقع مشغل الفخّار على ناصية سور المعبد، حيث تنحدر المدينة باتجاه النهر. كان قريباً من الماء وتسبغ عليه الظلال بعد منتصف الظهيرة فلا تعود الحرارة المنبعثة من الفرن الكبيرة لا تطاق. على سور المعبد مثبّتة رافعات تسحب الماء من الفرات الى الحدائق على شرفات المعبد، حيث الحدائقيّون يسقون الأشجار المثمرة بأباريق كبيرة. ترفع الرافعات كذلك الماء الى مشغل الفخّار، حيث تنسكب في خندق حول المنزل وتجري من خلال الجدار الى داخل المشغل، عبر محراب، حيث يجلس الإله أنكي وهو يتأمّل ماءه وانسيابه. حينما يكون الماء قد إنسرب عبر عجلة الفخّار الدوّارة والطاولات الطويلة، ينساب الى أسفل باتجاه المنحدر عائداً الى مجرى الفرات، ملطّخاً بالطين المجلوب من ضفّتيه ذاتهما.

ينبغي أن تكون هناك طريقة أسهل، فكّر إنكسيلوب، فيما كان يلتقط كتلة طين من حصيرة القصب ويضغطها في القالب.

المزارع الكبير يجب أن يرسل بلاغاً الى أخيه.

"أنا أهديك عشرة خراف وعشر أبقار. كلّ شيء بخير. يجب أن تضحّي بأفضلها قرباناً لأجل مولودك الأوّل. فليكن مباركاً".

دون أن يعرف ماذا يفتقد، كان إنكسيلوب يفتقد شيئاً.

Twitter: @alqareah

ينبغي أن تكون هناك طريقة أسهل، فكّر هو.

أخرج الطين ووضع القوالب على قطعة معدنيّة. المزارع الكبير والراعي الذي سيقود الحيوانات والبلاغ الى أخي المزارع كانا يتفحصّانه. كتلة طين مخروطيّة للخراف العشر. واحدة مدوّرة للأبقار. واحدة بيضويّة لكل شيء بخير، كتلتا طين قرنيّات الشكل لأنّ حيوانين سينحران قرباناً الى نانا، واحدة هرميّة التكوين للأمنيات الطيّبة ومباركة الإبن الذي ولد، والذي سيحصل على القضيب الجالب للحظّ خاصّته معها.

وضع أحد الصبيان الصفحية مع القوالب الصغيرة في الفرن، فيما كان إنكسيلوب الفخّار يكوّر كرات أكبر من الطين المجوّف مع قمم مفتوحة وموضع لنقش البلاغات في الداخل. أبرز المزارع الكبير ختمه ووضع ختمه، الذي كان يصوّر أسداً مضطجعاً وسهم يخترقه في البطن، على ناحية الكرة الرطبة المجوّفة. عاد الصبيّ حاملاً الصفيحة والبلاغات شبه الجافّة ووضعها بملعقة خشبيّة في حرص داخل الكرة التي قام إنكسيلوب بإغلاقها فيما بعد. وضع المزارع الكبير ختمه على كتلة طين رطب. سحبوا عبرها خيط، ثمّ عقد الخيط فوق فتحة الكرة.

ينبغي أن أجد طريقة أسهل، فكّر إنكسيلوب.

المزارع الكبير كان ينظر، فيما كانت الكرة تختم، بعدها إنصرف في سبيله. الراعي إنتظر الى أن يبس الطين واستحال كرة صلبة متماسكة، وضعها في حقيبة جلديّة، هزّ رأسه ومضى لجلب الحيوانات ليسلمها مع البلاغ الى أخي المزارع.

Twitter: @alqareah

جلس إنكسيلوب وبين يديه قطعة من الطين التي خلط فيها التراب والماء حديثاً التي يمكن أن تكون شيئاً ما، وهو يفكّر، بالرغم من أن عليه الذهاب للبيت وأن ماجش تنتظر في المنزل البارد، المضيء في أعماق المدينة بالخبز، الدجاج المحشيّ، البطيخ، لكن بدلاً من الذهاب فإنّه يكوّر الطين بين يديه، كرة طين فارغة الفحوى، ويتخيّل الخراف، الأبقار، الطفل، الأضحيّة، المباركة. بغصن مدبّب شرع برسم الأشكال فوق سطح الكتلة الخارجيّ، الأشكال التي وضعها في كرة أخرى: البيضويّ، المثلّث، الهرميّ، القرنيّ، الذَّكَريّ.

كانت الحرارة تلهب المشغل بالرغم من أن الباب الكبير المتجه للشمال كان مفتوحاً، لكي يمكن لنسمة ريح أن تمرّ. الكاهنات يغنين خلف سور المعبد، الشمس على وشك المغيب.

لكنّ إنكسيلوب كان يفكّر، ما الذي تفعله ماجش حينما كانت تنتظر، صارت خطوطه فوق الكرة متلوّية وخرقاء، وفي إنفعال هرس كرة الطين وجعلها ملساء ومدوّرة مثل القمر في السماء. تناول غصنه ورسم قرن الثور على سطح الطين، رسم الدائرة مثلما الشمس، رسم جرّة مثل تلك الجرار التي كانت تنتصب في صفوف أمامه، رشيقة ذات مقبض للزيت، رسم أمواجاً مثل مويجات النهر، ونجوماً رسم كذلك، مثل ثلاث خطوط بسيطة تتقاطع عند الوسط. إينانا، هي النجمة الأولى التي كان يراها في سماء المساء، تتجلّى له الآن في الطين الرطب.

نهض إنكسيلوب ووضع الصفيحة المدوّرة في الفرن، فيما كان الحدائقيّون يسيرون في طابور طويل أصفر، هابطين نحو

Twitter: @alqareah

السلالم من الحدائق في طريقهم الى البيت. إنتظر الى أن ينتهي إحتراق العلامات التي صنعها. نادى على أحد الصبيان الذي كان يكنس أرضية المشغل.

- "إذهب الى آدائم كاهن - مي، إعطه صفيحة الطين هذه وقل له أنّ إنكسيلوب يرسل له بلاغاً. الشمس على وشك المغيب، الماء ينساب تحت نانا. نجمة إينانا تبزغ في السماء، الزيت قد جني. إساله إن كان يرى ذلك واطلب منه أن يأتي إليّ غداً صباحاً".

وضع الصبيّ قطعة الصلصال الساخنة ذات الخدوش في كيس من الجلد كان يمسك به بيده وانصرف خارجاً. كان فخوراً. سيقدّم التحيّة الى كاهن - مي الذي يتكفّل بجعل القوّة التي في نماء الزرع المهيمنة على قوانين المدينة، تدفع الرغبة لأن تنبثق من الجسد، تنسج في الأجساد لكي تنمو، تواصل استمرارها. ولأنّ كاهن - مي يعرف القوى في الكون، يقرأ التحذيرات، يستقريء الأخبار في هجرة الطيور والبلاغات في أحشاء قرابين الحيوانات. إنّه معتاد على تفسير العلامات.

كان إنكسيلوب متشوّقاً لمعرفة فيما إذا كان باستطاعة آدائم تفسير علاماته.

بعدها مضى إنكسيلوب الى المنزل. ماجش كانت في انتظاره بالخبز، الدجاج الساخن، اللبن الرائب، البطيخ وإبريق من الجعة.

- "حينما تفرغ من تناول الطعام لديّ شيء أريد أن أريك إيّاه"، قالت له.

Twitter: @alqareah

فيما كان إنكسيلوب يأكل كان الصبيّ الذي يعمل في مشغله واقفاً في المعبد الذي كان على وشك أن يعمّه الهدوء بعد يوم العمل. آدائم كان يقف وسط جماعة من الناس والاسطوانة المدوّرة في يده، وكان على الصبيّ مرّة بعد أخرى توضيح ما قاله سيّده. الشمس في طريقها للغطس في الفرات. الماء يجري تحت الآله الثور. نجمة إينانا، جني الزيت. العلامات تشي بهذا، يقول الصبيّ. الجميع كان يرى ذلك. وبعد أن شقّ آدائم لاحقاً الخروف، كآخر عمل في اليوم، وتفحّص الغشاء الذي فوق الكبد أبصر الغشاء منجمعاً في في تقاطع من ثلاث خطوط متساوية، تماماً كما رسم إنكسيلوب نجمة إينانا. حينها عرف آدائم أنّ نانا قد أرسل بلاغه، أنّ بإمكانه أن يتحدّث عبر الخطوط في الطين، مثلما يتحدّث عبر أحشاء الحيوان. الذي كان ينقص قد وجد.

حينما استلقى إنكسيلوب فيما بعد على سريره الى جانب ماجش، بعرقها المنساب على جلده وهو يصغي الى تنفّسها الخفيف، السريع، أبصر علامة بذاتها، "لا شيء"، فكّر هو، "يشبه ذاته"، لكنّها تخفق أمامه مثل خطوط، حوافّ، دوائر، وينبغي عليه إمساك رأسه بكلتا يديه لكي لا يستحيل الى خطٍّ، تأوّه وجلس في السرير وقال بصوت عال:

- "دعني أرَ ذلك الذي هو موجود".

لكنه لم ير شيئاً يعرفه من قبل. ليس قبيل الفجر إستطاع أن ينام على حافّة حلم طويل. حينما استيقظ كان أوّل ما رآه هو سجّادة ماجش الفريدة ذات الخطوط، الأشكال والسطور الملوّنة

Twitter: @alqareah

التي لم ير مثلها بهذا النسق من قبل.

- "لقد أحببت سجّادتك، يا ماجش"، قال لها، "أنتِ تفكّرين مثلي".

لم ترد عليه ماجش، فقد كانت ما تزال نائمة.

Twitter: @alqareah

كانت شعلة المصباح النفطيّ تطفطف أمام آدائم. المصباح كان سلحفاةً ذات جدران مثبّتة على أربعة أرجل، وخلف ثقوب عين السلحفاة المفتوحة تتّقد النظرة. بناته كنّ يتشاجرن في الغرفة قريباً منه، مارثا تتحدّث بسرعة وانفعال، إنجكازا تحاول أن تقاطع، أن توضح. لم يكن بإمكان آدائم التفريق بين الكلمات، لكنّ أصواتهن تملأ الفناء في وسط المنزل، حيث ضوء الشمس يستقيم في دعامة متصلّبة، شاحبة.

في ذات الصباح رأى آدائم إنجكازا وهي تتسلّل خارجة من أحد منازل المعبد. ليس من صالة القرابين الصغيرة، حيث كانت تجيء كلّ يوم نيابة عن العائلة مع طير تقوم بحرقه في أحد هياكل المذابح الثلاثة. كانت قد قدمت من البيت الذي كانت الكاهنات، اللواتي يتنبّأن بالمستقبل، يعشن فيه. ذلك ما أثار قلقه. نظرت إنجكازا بخلسة الى ما حولها حينما خرجت وكأنها كانت مراقَبة، ثمّ ركضت مبتعدة بأسرع ما يمكنها، رافعة بيدها تنّورتها الثقيلة المصنوعة من جلد الخراف. لم تر آدائم الذي كان أمام البركة على الشرفة يتلو صلاةً الى أنكي لكي يواصل جريانه في حوض النهر، وفي قنوات المياه، متدفقاً عبر الأنابيب المفضية الى الحدائق، في الأرض، في الخنادق، وفي أنابيب التصريف.

– "تدفّقْ، يا أنكي، تدفّق. قوّة حركتك، ربوبيّتك هي حياتنا".

Twitter: @alqareah

واصل آدائم الصلاة، فيما كانت إنجكازا تختفي بين المنازل. لم يقطع صلاته، لأنّ ذلك يعني إنقطاع مجري الماء، لكنّ براجمه أضحت بيضاء وعيناه تتابعان إنجكازا الى أن أخفتها البيوت.

لم يكن بمقدور آدائم إظهار نفسه في غرفة النساء. في المساء سيبعث بساعٍ الى إنجكازا ويطلب منها إيضاح موقفها. رغم كونه يعرف بأنها ًسوف تربض أمامه من دون أيّة كلمة الى أن يتخلّى عن الأمر. كان يمكنه أن يصرخ في أذنها دون أن تتحرّك أو تنبس ببنت شفة إذا لم يلائمها الأمر.

إنجكازا تختلف عن مارثا التي ابتعدت شارعين فقط في طريقها للقصّابين حتى عادت الى المنزل ومعها مغامرة ترويها لهم. كذلك في مظهريهما كنّ متناقضتين. إنجكازا صغيرة ومفتولة، ذات وجه طويل يتغيّر باطّراد مثل إناء ماء يحاول فيه المرء الإمساك بصورته المنعكسه فيه. مارثا كانت أطول، مكوّرة، ووجهها مدوّر وشبيه بطبق مطبوخ بخبز وزبيب. لكن كلمات إنجكازا هي التي يودّ آدائم أن يسمع، إفادتها المكبوته التي يرغب سماعها.

سيكون عليه في المساء أن يباغتها صارخاً أنّه قد أبصرها تغادر بيت العرّافات. عليه أن يعرف ماذا سمعت في الداخل هناك قبل أن يبدأ الآخرون بالتحدّث عنه. هو أبوها بالتأكيد بالرغم من خصيته الخاوية. يمتلك آدائم حبّاً مكتوماً ومهيمناً لأبنائه الثلاثة، حتى أن وجودهم هو الذي كان يحرّك عالمه. أنهم مثل ضوء متصلّب في دواخله. كان نادراً ما يقوم، وفي البيت فقط، بترك يديه تنزلقان مثل نهر يجتاز طرقاته باحثاً عن شعر أطفاله، أياديهم، الجلد

Twitter: @alqareah

الملفوف حول خصورهم. مرّة واحدة مسّت يده حول صدر مارثا. جيش بأكمله تفجّر تحت إهابه. حاول أن يكبح زمام لمساته. لكن الأطفال، الذين بعد كلّ الإعتبارات لم يعدوا أطفالاً، بل شباب ناضجون، البنات جاهزات للزواج، الصبيّ متأهّب لمهنة، يتفاجئون أجمعهم في حذر، بنظرات مندهشة، مائلة، حينما يلامسهم، ويشعر آدائم أنّ محبته تساق مثل خيول الى دواخلهم. لكن الزواج؟ هل كانت تلك مهمة إنجكازا في المعبد؟ أن تلك النسوة في منزل النبوءات هن اللواتي يتولن أمر الإخبار بشأن الزواج.

ضرب آدائم، وهو على كرسيه أمام الضوء المنبعث من عينيّ السلحفاة، ألمٌ صدع رأسه من المنتصف. سيكون مجبراً على إرسالها بعيداً. أشدّ من الألم نفسه يعّذبه حضوره. عليه ألاّ يكشف العواطف المخبوءة تحت سترها.

سمعت ثلاث طرقات خفيفة، ثمّ انفتح الباب. ولج سامس الى الداخل.

- "وصل النبيذ، يا سيدي. من أبيك، كَرْم أبراهام".

نهض آدائم من مكانه متضايقاً. الشعور بالإنزعاج انتشر في جميع أرجاء جسده. خارجاً، في الفناء المفتوح، حيث ست جرار نبيذ سحبت الى الداخل، تحوّل الشعور بالإنزعاج الى غضب، سحب نفساً عميقاً الى داخل رئتيه، زفره ببطء الى الخارج ثانية فيما كان يفكّر: أنا أحبّ والدي. أنا سعيد بهذا النبيذ الذي بعث به.

جاء ثلاثة رجال ساحبين البقيّة، سبعة جرار خزفيّة. قاموا بتحريكهن الى الفناء، لكن حين وضعوهن على الأرض أفلت أحد الرجال الجرّة لحظة قبل الآخرين فهوت على قاعدتها بشكل مائل

Twitter: @alqareah

فانشرخت بصدع خفيف صاعد من قاعدتها الى القمّة لينساب النبيذ القرمزيّ مثل الدم من أحد الشقوق.

عجّل الرجال بوضع الجرّة على الأرض لإيقاف النزيف، لكن آدائم إستدار نحو الرجل، كانت لحظة خاطفة، صعد دمه الى رأسه، ومن فمه تدفّقت كلمات حانقة، مقرفة. كلمات لم تكن تقال عادة، بل تقبع مخبوءة في ذهنه مثل طوفان، مثل قيح يضغّط لكي يبرز للعيان. إنتصب الرجل مشدوداً دون أن يجيب. بمرور الوقت مع مغادرة الكلمات له اصبح آدائم شاحباً، الكلمات أضحت أكثر شحوباً، إنكمشت على نفسها، فقدت طاقتها، ثمّ توقّفت بعد ذلك.

- "لم يحصل أيّ ضرر"، قال سامس.

هزّ آدائم رأسه. إستعاد نفسه، من غير غضب. قبض على حفنة رمل بلون الصدأ بين يديه، قذف بها خلفه وقهقه بفظاظة، قهقهة حمار.

- "لم يحصل أيّ ضرر" قال مربّتاً على كتف الرجل.

إنجكازا ومارثا واقفات مستندات على بعضهن في فتحة الباب. لوّح آدائم مبتهجاً إليهما.

- "نبيذ"، هتف نحوهما، "لقد وصل نبيذ".

أمسك آدائم بختمه في حزامه ونزعه عنه. كانت يداه ترتعشان. الصورة في وسط الختم هي ذات الصورة التي على ختم والده المطبوع على قطعة الكتّان التي تغطّي سدّادت جرار النبيذ. كان الكاهن يحتضن شجرة مغنوليا مزهرة، الزهور التي تتدلى منها كانت مثل بشارة عن الضفاف المورقة في الربيع. على جانبي الشجرة كانت معزتان تقضمان الزهور، أفضل قرابين الحيوانات

Twitter: @alqareah

المنذورة هي التي تلتهم كلّ عام بواكير الزهور الأولى لكي يصير لحمها المعطّر ذاته حياة أخرى تتفتح.

أضاف آدائم قصب إينانا الفراتيّ والى جانب الواقف كان ثمّة خروف وجرّتان لأحشاء الخروف، لكي يمكن للجميع أن يروا أنّه هو المستقريء الذي يضيف النشوة السريعة فيما هو عابر في الأواصر، لكي يمكن للخطط المخفيّة، التي قرّرها الآلهة للبشر، أن تنكشف.

لم يستطع آدائم أن يهدّيء يديه. تناول كتلة طين للرقم 6، واحدة للرقم 1، واحدة للجرّة، واحدة للنبيذ، واحدة للتحية، من صندوقه ذي القطع الصلصالية الصغيرة الذي يقف سامس حاملاً إيّاه أمامه. كان ينظر فيما كان سامس يختمها في كتلة طين مجوّفة.

بعث آدائم بسامس الى إنكسيلوب ليفخر له قطع الطين. طلب من ساس أن يبلغ تحياته الى الفخّار ويخبره بانّه سيجيء في اليوم التالي. لأنّ إينانا أظهرت بالنجمة التي على كبد الحيوان أن طريق إنكسيلوب الذي عليهم أن يتبعوه.

Twitter: @alqareah

إنتظر آدائم الى أن ابتعدت العربات، ثمّ أحضر مطرقة ذات معدن قاس في نهايتها وفتح ثقوباً أسفل الجرار، واحدة تلو الأخرى، فساح النبيذ في ساحة الفناء التي تغطّت بلون ذهبيّ موحل. تبلّلت أقدام آدائم، النبيذ الذهبيّ القاتم تطاير على ساقيه، فضرب ثانية على الجرار، غائباً عن الوعي مثل سكران، طائش، عديم المشاعر، لكن بتصميم، وثبات. كان الهدوء يعمّ الفناء، لا أحد قدم من داخل المنزل، لا أحد أطلّ من النوافذ ليشاهد ما جرى. من خارج المعدن، خارج ضربات الجرار عبر المعدن، عبر الأشجار، داخل جسد آدائم، انبثقت سلسلة صور، أمواج تناسخت من النبيذ.

والد آدائم في بستان الكروم. أصابعة المربّعة ذات الأظفار القصيرة المتصدّعة تنزلق فوق التمور وتضغط برفق عليها، تلتقط حبّة منها وترفعها باتجاه شفتيه ليقضم التمرة في فمه محاولاً معرفة السرعة التي ينبثق فيها العصير منها. الشريط الطويل المتلألئ للماء يتثنّى حول أشجار النخيل. الأرض متصدعة مثل الأظافر، وفي الأخاديد تبدو الرطوبة. يعاسيب، خنافس طائرة، زنابير ونحلات تئزّ حول التمرات القهوائيّة المتخمّرة فوق الأرض.

حين يفكّر آدائم بأمّه يتذكّرها وهي في الديوان محاطة بالعبيد،

Twitter: @alqareah

الخدم والصديقات اللواتي يتحدّثن فيما هنّ يحتسين النبيذ. حياة القرية تهمهم في دواخل الأمّ التي كانت مستلقية بدينة وشاحبة وسيقانها مغطّاة بالدُّثُرِ لكي لا يتمكن أحد من روية الذبول الذي أصابها من الفخذ فما دون بسبب المرض الذي بدأ في أصابع القدمين ثمّ قام باحتلال قطعة طازجة من اللحم كل عام.

النساء جئن في تنانير جلديّة طويلة مصنوعة من جلد الخراف، عاريات الصدور، حيث الأطِفال الصغار متعلّقين يرضعون، وكنّ يتحدّثن الخبّازة التي احترقت إحجة يديها حينما سقطت في الفرن. توجّب عليهم أن يقطعوا الجزء المحترق منها بالبلطة، وكانت تصرخ وكأنّها ساحرة النار نفسها. بعدها تحدثن عن كيف أنّ عليها المرور بتجربة الماء. ألم يكن طعام الماء مختلفاً كذلك منذ عام؟ ألم تحدث أمور كثيرة لا يمكن تفسيرها بعد أن تخلى زوج الخبّازة عنها؟ ربما كان ذلك جيداً أن تحترق يدها، لكن من سيخبز الخبز بعد الآن؟

"ستواصل ذلك"، قالت إحداهن، "بذراع واحدة مع مسند تحت الكوع الذي يمكنه الانحناء". بتالدت النساء النظرات مع بعضهن. من الذي سينطلق بالحكم الأوّل؟ هل سيأكلون الخبز أم لا؟

- "ربما كان الشرّ هو الذي احترق منها"، اقترحت إحداهن.

- " ربما لن تتجرّأ على سحر الخبز ثانية"، قالت أخرى.

هزّت الأخريات برؤوسهنّ. أفلتن زمام الأطفال. أكلن الخبز.

لكن حينما يمرض الأطفال، حينما ينظر الرجال الى النساء الغريبات في السوق، فإنّهن يعرفن لماذا.

Twitter: @alqareah

بعد أن أصبح آدائم وأمّه وحيدين أزاح الدثر جانباً عنها فأمكنه رؤية اللحم المخضرّ والمزرقّ ذو الجراح المقيّحة، ومن خارج فم الأمّ كانت تتدفّق اللعنات المنصبّة على شخص بعينه، الذي لم يعرف آدائم ألاّ بعد زمن طويل أنها كانت تعني الخبّازة.

– "الشرّ الذي يأتي لا بدّ له من مصدر"، تقول الأمّ في لحظات صفائها، "من الذي يتمنّى لي ذلك؟".

أصغى آدائم الى حكايات النساء فيما كان يحاول تشكيل صورة للناس الذين يسمع عنهم دون أن يكون قد إلتقاهم أبداً. إبنة مامور الضرائب أنجبت طفلاً، وهي ترفض أن تبوح باسم والد الطفل. حاولوا أن يتظاهروا بأنّ والدة البنت هي التي أنجبت الطفل. لكن من الذي يستطيع ان يكذب في بيت مليء بالخدم، مليء بالآذان والعيون؟

– "كان يتوجّب عليها بالتأكيد أن تخرج وترى الجيش حينما مر من هنا"، قالت إحدى النساء.

– "في الربيع الماضي"، أضافت أخرى.

شرعت النسوة بالحساب. القمر الذي يكبر ويستجمع نفسه، الأطفال الذين يكبرون ويستجمعون أنفسهم وأخيراً ينظرن في ضياء الليل، مكتملاً، منتشراً ومنحنياً مثل القمر في البطن يأتين. لم يكن دقيقاً تماماً. النساء يتحسرن. ذات يوم، ذات يوم قادم، سيتحدّث أحد ما، والآذان المبثوثة في كل مكان ستسمع ذلك، إسماً، سرّاً مهموساً. فتحت فتاة كيس قماش. في القماش كان ثمة سوار ذهب.

– "من بابل"، همست الفتاة.

Twitter: @alqareah

تناقلن السوار بين أياديهن. جميعهن فكّر بامتلاكه. ما الذي فعله الرجل في بابل ليمكنه شراء مثل هذه الحلية لوجته؟ كم ينالون مقابل القماش هذه السنة؟

- "لقد حصل على أجراً مضاعفاً تقريباً في العام الماضي"، همست المرأة.

أعادت وضع السوار في صرّة القماش. ما زالت تنتابهن الأحاسيس لملمس المعدن الناعم على الأصابع. تحسرت النساء. كان الأطفال يبكون حولهن. كلّ هذا الذي عليهن تأديته. إنهن متعبات. مليئات بالحكايات.

بكى آدائم مثل بقية الأطفال. كان يصغي. كان يعشق عقودهن الطويلة التي تتألق بالأزرق والبرتقالي تحت ضوء المصباح. مصاريع النوافذ أطبقت، تعرّقت النسوة، ملأت جلودهن وشعورهن فضاء الغرفة بالعيون، الأصابع، الروائح.

وفي الصباح، حينما دخل الى حجرة أمّه احتضنت رأسه بيديها وتشبّثت بشعره وهي تقبّله وتنتحب.

- "أنت الوحيد الذي أملك"، قالت وهي تئنّ.

- "هل تحبّني؟".

- "أبوك لن يأتي لي أبداً. أنت كلّ ما أملك".

غطّت وجهه بقبلات ناقعة. وعند المساء كان كلّ شيء مختلفاً بعد أن احتست النبيذ.

- "إنّه الألم"، اشتكت له، "لقد انتقل الوجع الى داخل جسدي".

ثرثرت كثيراً حينما ولج آدائم الى غرفتها.

Twitter: @alqareah

- "أين أبوك؟ مع من يضطجع الآن؟".

قبّلت العبيد، الخدم، آدائم، فمها كان على كلّ شيء، رطباً، فاسد الرائحة، وفيما كانت تضع فمها الرطب فوق خدودهم، أفخاذهم، أياديهم، كانت تهمس: "إسمع! على من سيدخل هذا المساء؟".

كان الأب يضطجع مع أحد زوجتيه الأخريات، مع محظيّاته، مع الخبازة التي كانت تأتي في المساء وتنتظر على فراشه بيدها الملفوفة بحرير أزرق، لامع. هدر إبراهام حينما دخل.

- "هذا لأنّني قويّ الصُّلب"، قال موضحاً.

كشفت الصيحة عن الغرفة التي كانت يتواجد فيها فأنشبت والدة آدائم أظافرها في جلده الى أن تلاشى الصوت.

كلّما أنشب المرض أنيابه في جسد الأمّ ينشب قيح بغيض سامّ مخالبه في عقلها. توقّف إبراهام نهائيّاً عن الولوج الى تلك العتمة الكثيفة، العفنة. كان يبعث بنبيذ أقوى فأقوى إليها، جرار أكثر فأكثر. وفي الليل، حينما تستيقظ يكون أحد العبيد واقفاً عند رأسها حاملاً النبيذ الساخن الممزوج بالعسل. الفتيات القرويّات أخذن بالمجيء متردّدات وبشكل متقطّع. أصبحت حادّة الطبع، وبّختهن لأنّهن ينعمن بصحّة جيدة، يمكنهن السير، لأنّ رجالهن يشتهونهن ويهدونهن الحليّ. أحايين أخرى تنشج مثل طفل لا يمكن تعزيته، وتحاول أن ترضع من صدر صاحباتها الى أن يدفعنها عنهن من الإشمئزاز. كانت تقلب حكاياتهن على أعقابها وتلقي بأحداثها على رؤسهن.

Twitter: @alqareah

حكايات صاحباتها أضحت سطحيّة ولا أباليّة وهذا ما أثار غيظها، وكأنّ الوجود قد تهاوى من حولها وأضحى خاوي الأحداث خارج غرفتها كذلك، مسطّحاً، مسخّماً بالشحم المحترق. عن الخفافيش. عن الأطفال الذين يستحمون في حوض كبير فوق السقف. لا أحد يفكّر بأن يحكي لها كيف يمرّ اليوم فقط. يحيكين فقط عن الأحداث التي تشوّش إيقاع الايام، لأنّ الإيقاع كان جزءاً منهن.

كنّ يعترفن أن ما يحيط بهن هو المتوفّر الوحيد للحديث عنه. الآن تبدّلت الأمور، صرن يرتعدن وهن يتحدّثن كسابق عهدهن، الى أن صار الحديث جزءاً من الإيقاع اليوميّ.

قصصن على بعضهن، لكن ليس لأمّ آدائم، كيف أنّ إبنة مأمور الضرائب قتلت طفلها لأنّه كان يشبه أباه مثلما تشبه التمرة أختها، وكانت رويته تثير القرف. سمع آدائم ذلك في الممرّ، الحدث يكون موجوداً حينما يتم تناقله من فم الى آخر. وضعت الخبّازة قطعة معدنية حول ذراعها والخبز أصبح أفضل مما كان عليه من قبل، وهذا ما كانت تعتقده النساء، كما أن الأطفال أصبحوا أقلّ عرضة للمرض مما كانوا عليه قبل إحتراق ذراعها. لذلك أشعلن بخوراً أضافياً في المعبد لأنّ أحداً ما قد حماهم من الأفكار الشريرة التي تشرّب بها جلد يديها ومنها تسرّبت الى العجين.

كانت تعرف جيداً، والدة آدائم، أنّ العالم كان رماديّاً، مغبراً من حولها. أن النساء شرعن بالإبتعاد عنها. كانت تدرك ذلك خصوصاً في الصباح وكانت تشكو لآدائم، فيما كانت أصابعها تمسّد شعره.

Twitter: @alqareah

تشنّجت زوايا فمها الى الأعلى بابتسامة رهيبة، لا يخترقها الماء، ولا الهواء، لكن شيء ما ينتمي الى عالم آخر. ثمّ توقّفت عن التنفّس.

إستعاد آدائم ذلك المشهد مع نفسه مئات المرّات.

- " إذن لقد ماتت".

كان مستغرباً من أن المرض يستغرق كل هذا الوقت حينما يكون الموت سهلاً. صاح منادياً في الممرّ. أحدهم قدم راكضاً. الأب وصل أخيراً، إتكا على إطار الباب ونظر متفحّصاً الى شبحهها بوجه يخلو من أدنى تعبير.

- "إذن لقد ماتت"، قال إبراهام.

كان مرعوباً من الكيفية التي ستموت فيها. لكن الحياة التي عاشتها هي التي كانت مرعبة. كان آدائم لا يفكر سوى بها، وها هي الآن قد ماتت. كانت محتلّة لتفكيره من قبل، فلم يكن آنذاك يرى بعينيه.

Twitter: @alqareah

أنا نهر، فكّرت إنكازو. هناك عند أعالي الضفاف تنمو الحياة، المدن، البشر. من بين ضفافي، أصابعي تنمو الأشياء. خيوط النسيج تتحرك من تلقاء ذاتها تقريباً. الأزهار في الأصص تنمو وتشرئب بأجسادها نحوي. الماعز الذي أرعاه يلد توائم. أنا نهر حياة يجرف كال ما هو ثقيل معه. أنا إبنة إنكي. ينبغي أن أكون ذلك. أفكاري تتشعّب مثل الماء الذي ينساب فوق الحصباء من قيعان الجرار. إنها تنساب في أنهار، في روافد. قنوات مستقيمة متلألئة في داخلي، وأفكاري تنهض، تهرق فوق الحقول، فوق الأرض التي هي تحتي. أنا ماء الخصب، وأفكاري هي أنا، هي يداي.

ألتقي بالنساء في العبد، حائرات بأمر الأطفال الذين لا يسقطون في أحضانهن، يشدن شعر رؤوسهن، يخدشن أوجههن، يستحممن بالوحل، يأكلن أوراق العنب، يرقدن والمخدّات تحت ظهورهن وأفخاذهن مشرعة في الهواء حينما يستغرق الرجال في النوم. لا يفلح شيء قبل أن يأتين إليّ. أنا من يعرّيهن، أنا النهر، أنا التيّار، يد على أعناقهن ويد في فروجهن، ومثل الماء أنساب عبر أجسادهن، ألتقط الأحجار الذي يسدّ الطريق، ألتقط الأوساخ، الحصباء، وكلّ ما يسد طريقي، وانظر، ها هم الأطفال يتقافزون في حجور النساء.

مارثا تقول: "لديك أفكار شاهقة عن نفسك، يا أختاه. وهذا

Twitter: @alqareah

ليس جيداً".

إنكازو تفكّر: لا أجرؤ على أخبار والدي بذلك. سأعدو خلسة الى المعبد، فتأخذني الكاهنة من يدي وسنمضي معاً عبر المدخل الضيّق في سور المعبد، حيث لا أحد من الآخرين يأتي، متجهتان الى الحجرة الخلفية المخبوءة وراء متاهة من غرف أخرى، لكن هنا مع أنكي، حيث الماء يتدفّق من خلال الجدران وينساب في خنادق فوق الأرضيّة، ستأتي النسوة إليّ. المعبد يحوز الفتاة البكر. آدائم لا يعرف شيئاً عن الأمر. هو كل حال ليس أبي. أنا تشكّلت من نطفة ماء، قطرات من النهر ولجت رحم أمّي، حينما كانت تستحمّ، وأخصبتها، باركتها.

مارثا تسأل: "هل تتذكرينها؟".

– "أنا أتذكّر يديها"، قالت إنكازو. "كان يبدو أن القماش الذي على النول يتسع من تلقاء ذاته تحت يديها، أشكال، ألوان، تفيض من بين يديها".

ـ"مثلما يحدث بين يدي"، تقول مراثا وتنظر الى يديها، باسطة قماش شالها بهما.

ـ"بين أيادينا"، إستدركت إنكازا مصحّحة. إستدارت زهور الشرفة باتجاهها حينما مرقت بمحاذاتها، كان يتدفّق منها تيار منعش يهب على من تمرّ به.

ـ"لم يكن عمرك سوى ثلاث سنين"، تقول مارثا.

– أنا أتذكّر كلّ شيء"، تقول إنكازو.

أنا إينة أنكي، فكّرت هي. أنا نهر الحضارة. ليس لي بداية.

Twitter: @alqareah

يقولون أنني مطر على جبل، ليس لي نهاية، لأنّ البحر ليس سوى أناي الأخرى.

ـ"أنا سعيدة جداً"، همست إنكازو مسحورة.

ـ"حسناً"، تقول مارثا، "لكن أين هي أنت؟ لا أستطيع أن أصل إليك. تنظرين نحوي وتحركين شفاهك، عيناك تدوران، ومع ذلك لا اشعر أنك هنا على الإطلاق".

ـ"أنا سعيدة جداً"، همست إنكازو.

جلستعلى كرسيّ ومدت ساقيها أمامها، برز بياض عينيها. عقدها ذو أحجار زرق وأخاديد تشبه الأمواج. لم تره مارثا من قبل.

لقد فقدتها، فكّرت مارثا. لا أستطيع إدراكها. سأظلّ ماكثة في مكاني، الفتاة الوحيدة في البيت، ولن أستطيع الزواج، ولا حتى مغادرة المنزل. إنها ليست على حق في ذلك. فهي لا تعرف ما معنى المشاعر. لا تعرف ما هو الحبّ. الشيء الوحيد الذي تشعر بها هو ذاتها لا غير.

مارثا تحب. مثل النهر الذي يرتفع، مثل الشمس التي ترتفع، مثل الهواء الذي يحلّق في المساء الحديدية، هي تحبّ هي. تستيقظ في الصباح على دفق شعور يتصاعد من أخمص قدميها نحو الأمعاء، الكبد، القلب، وحينما يقف تكون خفيفة مثل سنونوة، إنها هكذا مثلها. أفكارها مركّزة في نقطة واحدة، والتي هنا مانو، الشاب الذي تستطيع رؤية نافذته من نافذة غرفة نومها. حين تستيقظ في

Twitter: @alqareah

الصباح تظلّ واقفة على الأرضية ومصراعا النافذة مشرعان الى أن يستيقظ هو ويأتي الى نافذته. كان يعمل في مخزن النبيذ العائد الى أبيه في المساء، وفي بعض الصباحات تظل مارثا منتظرة ساعات عديدة قبل أن يطل وجهه من النافذة. كان يلّوح لها، يبتسم. تطبق مارثا مصراعي النافذة حشمةً وتهبط الى المطبخ باحثة عن بعض الخبز. إفطار الصباح انتهى وقته منذ زمن طويل. كانت تحلم بأن جسدها حجر يستقرّ في راحة يده، فيما هو يقوم بتلميعه بعناية ببطء. تحاول في الحلم أن تقول شيئاً له، لكن فمها من حجر، والكلمات تنكبس في داخله. كانت تنسج مانو سجادة في البيت عند المساء، خشخاش أحمر على قاعدة خضراء، لكل الكلمات التي لم تستطع قولها لرجل، مثل بذرة في تويج الخشخاش. إنها الهدية التي ينبغي على الفتيات أن يقدمنها الى من يحببنه. العلامة الأولى. أوشكت مارثا على إنهاء سجادتها. لكن إذا أخبرت إنكازو أبيهما بأنها ابنة أنكي، رغم أن مارثا تعتقد أنها أوهام، سيمكنها أن تسلّ الخيوط من النسيج وترميها بعيداً. فتحت مصراعي النافذة. غطست مثلما يغطس النهر، مثلما تغطس الشمس، متصلّبة مثل عباءة السماء المعدنية.

إنها مقيته، فكّرت مارثا. إنها غبيّة، غبيّة، غبية.

فرجت إنكازو فخذيها وقلبت محجريها. آوه، أنا نهر، فكّرت هي. دائماً في حركة، دائماً في تجدّد. لا شيء يستطيع إيقاف جرياني.

Twitter: @alqareah

إضطجع أناش في حوض الحمام الفخاريّ، فيما كان الضوء يخترق الثقوب النجمية الشكل أعلى الجدار ويترك إضاءة ناعمة، حائرة في الغرفة. يفضّل أناش الاستحمام عدة مرات في اليوم. لا يمكنه تحمّل العرق الذي يلتصق بالجسد ويترك رائحة عليه.

عليه أن يشطفه عن جسده لكي لا يشعر بنفسه مثل بهيمة.

فكّر أناش بالحكاية التي تدور حول الماء الذي يتصاعد فوق الأرض وينساب فوقها. من السماء يأتي المطر، من الأنهار الماء العذب، ومن البحر الماء المالح. بعدها ينسحب الماء عائداً، كل الى مكانه، والأرض الجافّة تبدو مثل فقاعات من أعشاب تتصاعد من قاع النهر. وها هو الآن هنا. الآلهة حمت البشر لكي يمنحوها الطعام، لكي يمنحوها الشراب. لا يستطيع أناش أن يفهم ذلك.

أليست لي قيمة أكثر من أن أكون خادماً للآلهة؟ فكّر أناش. لكنه حينما يفتّش في دواخله عن شيء أكثر من قيمة لا يعثر على شيء. رغم أنه لا يحاول أن يفكّر في ذلك فقد كان يعرف جيداً أنه قاتل أمه. كان يعرف أن آدائم يكرهه. لم يحدث وأن لامس أناش أبداً، لم يحدث أبداً وإن ضمّه بين ذراعيه قاذفاً به عالياً في الهواء. لم يأخذه معه الى صلواته في المعبد. لم يغنّ له مثلما تفعل الأمّ.

كان أناش يشعر بهذا الحقد مثل عباءة من حديد مطبقة عليه. كأن السماء قد تجعّدت لتناسب طيّات جلده. كان يتلظّى من الحر تحت المعدن، يتعرّق لأنّ طيّات المعدن مطبقة عليه. عليه أن يظلّ

Twitter: @alqareah

نظيفاً، وحين ترتطم مويجات ماء الحمّام الصغيرة بجلده يصبح الإحساس بالمعدن أقلّ. كان يتخيّل بأنه سومر مغمورة بالمياه، وأنّ أماكنه الحيّة كان تبرز فوق السطح. رأسه المليء بالأفكار الواضحة. ركبتاه الشبيهتان بالمدن. عضوه الفارع كشجرة حين ينهض. مثل الأرض الممتدة ما وراء النهر كان جسده يمتص الماء، يمتليء به، يقاسيه.

ذات مرة زار أناش المتحف الملحق بالقصر والذي يضمّ أشياء كان الإسنان يستعملها منذ أن شرع ببناء المدن. الرجل الذي كان يريه أرجاء المتحف قال له أن الإنسان يمكنه أن يفهم الحاضر مثل حجر البئر المسطّح الذي يتوجب تنحيته جانباً لكي يمكنه رؤية الماضي يتلألأ في قاع البئر. بنفس الطريقة يشعر أناش بأنه حجر مسطّح نحّاه أبوه جانباً لكي يمكنه رؤية تلألؤ الماضي. لم يستطع أناش أبداً تخيّل الصورة التي كانت عليها أمّه. لكي يمكنه ذلك عليه أن يعرّي حاضره، وإذا استطاع ذلك فسيفقد الطود الذي يحتمي به. ينبغي ألاّ يحدث ذلك. يجب عليه أن يحافظ على تماسكه بأيّ ثمن.

كانت الأمور تسير بشكل حسن حينما كان أصغر سناً. يمضي عند الصباح الى المعبد مع بقية الصبيان حيث يتعلّم هناك. لم يكن بمقدور أحد أن يلاحظ الفرق بينه وبينهم. بعد الدرس يسيرون معاً الى النهر ويتسحمون. كانوا عارين. جسده يتدحرج في أحضان الماء حيث يشعر براحته هناك. يظل يعوم هناك الى أن يحلّ الظلام وتكون المشاعل الموقدة أمام أكشاك التجار الغرباء عند رصيف الميناء وحدها التي تضيء المكان. بعض المرّات بقي ماكثاً في

Twitter: @alqareah

النهر لحين طلوع الشمس. بزغت مثل ثمرة حمراء ونادت عليه.

- "أناش"، غنّت الشمس، "تعال إليّ".

لكنه لم يذهب الى الشمس. كانت شديدة الحرارة، شيدة الإحمرار. عجّل بالخروج من الماء والذهاب راكضاً الى البيت. وقف سامس في الجادة ينتظر. خرج آدائم مسرعاً من مذبح البيت ونظرة غاضبة، زائغة تلوح من عينيه.

- "أين كنت؟"، صرخ به.

أحنى أناش رأسه.

مدّ آدائم يده الى أمام ووضعها على كتف الفتى ثمّ سحبها بسرعة إليه.

- "أنت متجمّد"، قال له. "دثّره، يا سامس، بسرعة".

مال آدائم برأسه على أناش.

- "إيّاك وأن تفعل ذلك ثانية".

يدرك أناش أن والده يمقت القلق. بين حين وآخر كان يمكث في البيت حينما لا يكون خروجه ضرورياً. ذلك يجعل من الأمور تمضي بيسر. يتخلّص من متابعة الشمس له بعينها الحمراء. يتخلّص من رؤية النساء في الجادة بأردافهن الثقيلة وأثدائهن الطويلة. لم يكن يفتقد صحبة الصبيان الآخرين. كانوا مطمئنّين، صارخين، متعرّقين. لماذا يجبر على رؤية ما لا يريد؟

Twitter: @alqareah

لم ينم إنكسيلوب سوى ساعتين، استيقظ بعدها. كانت ماجش تغني للطفل الذي كان بجانبها في الغرفة. لم ينتبه الى أنهما قد استيقظا، لكن الصوت أيقظه على كلّ حال. فكّر الكلمات التي يعرفها جيداً، بكل الطرق التي يضعها فيها مع بعضها، إنها مروحة يدوية تنفرج دائماً عن أشكال جديدة. الكلمات تشبه كتل الطين التي يكوّرها الصبيان على الأرض، تطرقع على بعضها متخذة ألواناً جديدة، تركيبات جديدة، والأطفال يقهقهون حين ينطقون بكلمات خاصة، يأخذون الكلمة بأيديهم ويتفحصونها، يقلّبونها ثم يضحكون من الكلمات الجديدة المجهولة الصعبة التي يستطيعون لفظها فجأة. حلم بالكلمات مخربشة على الطين أمام ناظريه، كائنات شيطانية غريبة يحمل المعاني على ظهورها وتطير بها بعيداً عنه الى أماكن لا يستطيع اللحاق بها.

فيما هو جالس على السرير ينتظر أن يهدأ الطفل وتعود ماجش اليه انفتح شريان في داخله وتدفق مثل نهر عبر حوض طويل منسيّ وانساب في داخله في حركة حيّة متشعّبة، حركة خاطفة جرفت إنكسيلوب معها مثل قارب يتأرجح في نهر الحروف. الكلمات المكتوبة شقت طريقها بدون استئذان، دون أن تنتظر متابعة أفكاره لها، إنها النهر بذاته يرتفع باحثاً عن التكامل، حيث سيمكنه الجريان.

كان إنكسيلوب مبللاً بالعرق. كان حركة، نهراً متدفقاً في مكانه، صاعداً وهابطاً في سريره وينتظر. لم يكن يعرف ماذا

Twitter: @alqareah

ينتظر. صوت يصمت، بحر. فجأة لم يعد هنالك فرق بين الأشياء المادية الموجودة من حوله. كشف النهر عن نفسه من حوله. النوم هو في المرتبة الأدنى. صوت الطفل جزء من النهر. أبصر أغنية ماجش منقوشة على الصلصال، الكلمة منها تمسك بذل الكلمة التي سبقتها وتسحب نفسها معها، هكذا سيكتبها في داخل الطين، دون تقطع. شعر بالطاقة التي تدفع اللغة عبره. شهق طلباً للهواء. جسده أضيق من تلك الطاقة. مثل حجر في الماء. مثل تمرة في أعلى النخلة. مثل نخلة تنحني على الأرض بسبب الريح. جاءت ماجش على أطراف أصابعها الى الغرفة.

- "ما الذي حدث لك؟"، سألته.

التقط إنكسيلوب أنفاسه ثمّ توقف. الطاقة تواصل مضيها.

- "ماذا حدث هناك؟"، سألها بدوره.

لم تجب. جسدها كان عارياً الى جانبه في السرير. امتدت يداها اليه، حولت جسده الى كتلة طين لا تستطيع معرفة شكلها، اليدان فقط هما اللتان تشكلانه.

- "كان هذا ما كنت أحتاج إليه"، قال لها إثر ذلك. كان قاطعاً مثل منشار. لم أكن أعرف أنه كذلك".

استغرق في نومه، وحينما استيقظت البنت وبكت من جديد نهض إنكسيلوب وسقاها بعض الماء وتركها تعضعض اصابعه.

- "كيف تكبرين؟"، سأل الصغيرة.

لم تجب الطفلة. وحينما حاول أن يضجعها من جديد استيقظت وكأن النوم كان ماء ينسكب منه عليها، وكأنه كان يستطيع

Twitter: @alqareah

أن يمنحها النوم مثلما يسقيها الماء. اضطجع الى جانب الصغيرة في الديوان ليمكنها ان تنال شيئاً من نومه. في النهاية نام إنكسيلوب كذلك الى أن لاحت تباشير الصباح من جديد.

Twitter: @alqareah

فوق الطاولة الحجرية الواطئة المنصوبة على سقف المنزل وضعت ماجش مجموعتهم من أحجار الأعداد أشكال الكلمات في سلسلة طويلة. كانت الوقت مساء. حافة الشمس تتسكع حول الأرض والنهر يشبه سواراً من ذهب. الماء يقطر من أخاديد السقف ويسقي شجيرات المشمش الصغيرة المغروسة في أصص حول الشرفة.

كان إنكسيلوب قد صنع سلسلة اسطوانات مسطحة من الطين ما زالت رطبة لحد الآن. سحبت ماجش أحجار الحروف، التي تستعمل لإرسال البلاغات في الكبسولات الطينية، من الأسفل لترى كيف كانت النقوشات تبدو. حجر للرقم 1. كان الحجر يصوّر وعاءاً زيتيّاً.

كان إنكسيلوب يقف خلفها وينظر للنقش من فوق كتفيها.

- "إنه يشبه المنجل"، قال لها. "الحجر الذي يضغط به والنقش في الطين شيئان مختلفان كثيراً".

- "لا شيء يكون نفسه عند النظرة الأولى"، قالت ماجش. "لكن حين يواصل المرء التحديق سيكتشف أن الأشياء تعكس صورة بعضها. هذا يستوجب جعل النظرة مجوفة ليمكنها احتواء النقش والشكل في ذات الوقت".

تنازل إنكسيلوب قضيباً مدبباً من المشغل ورسم به وعاء صغيراً على الطين، لكن الخط أصبح خشناً ومكدّراً.

Twitter: @alqareah

- "لن ينجح ذلك"، قالت ماجش. استلّت دبوساً من شعرها وأعطته لإنكسيلوب. رسم بحذر الوعاء من جديد بالدبوس. رسم أحد القدور التي يستعملونها للخبز.

- "ما هذا؟"، سأل ماجش.

حاولت ماجش تجويف نظرتها. أن ترى الشكل خلف الختم.

- "خبز"، قالت له. "رغم أنه يشبه صحناً فإن ما رسمته هو خبز".

لامس الأخاديد بأصابعه.

- "أنه طين"، قالت له، "وأنا أرى وعاءاً تريد ان تقول لي أنه خبز".

- "ربما هناك أمور أخرى أفضل إخبارك بها"، قال إنكسيلوب ودس يده بين فخذيها.

- "ورغم أنه ليس خبز فما أراه هو خبز"، قالت ماجش.

"خبز يا إنكسيلوب، فكر بذلك".

إستلت دبوساً آخر من شعرها ورسمت الى جانب الوعاء دائرة، رأساً بعينين كبيرتين وخطّ للفم.

- "ماذان يمثل هذان الشيئآن مع بعضهما؟"، سألته.

سحب إنكسيلوب يده.

- "تناول طعام"، قال لها، "ليس الوعاء لوحده، ولا الوجه فقط، لكن مع بعضهما يمثلان شكلاً مجوفاً".

رسم إنكسيلوب مثلثاً بخطوط من الأعلى للأسفل.

عضّت ماجش شفتها.

- "ما زالت ليس سوى أكثر من خطوط على الطين".

Twitter: @alqareah

- "إمرأة"، قال لها، "هذا ما أراه حينما أسمع الكلمة".

رسمت ماجش قرب صورة المرأة ثلاثة نتوءات.

- "ثلاثة؟"، سألها إنكسيلوب.

- "لا تفكّر بما ترغب في رؤيته"، قالت له ماجش، "إنها الجبال".

- "لنقل إذن أنها جبال"، قال إنكسيلوب، "لكن لم هي الى جانب المرأة؟".

- "فكّر بذلك"، قالت ماجش وظلّت تحدق بترقّب إليه.

- "نساء"، قال إنكسيلوب، "جبال، نساء من الجبال. نساء جئن من الجبال".

التمع ضوء في عينيه.

- "عبدات؟ ألستُ على حق؟ النساء من الجبال. قادمات كعبيد. هل أنا على حق؟"، كرّر السؤال عليها مراراً وهو يتقافز في لهفة.

- "نعم"، قالت ماجش، "لقد كانت ذلك. عبدات".

وهكذا واصلا طوال المساء. تناولا الجعة وأكلا الدرّاق وأقراص السميط. ملآ الطاولة بخربشات الدبابيس. كانت أفكارهما عبارة عن خرابيش طويلة، أشكالاً يعرفونها رغم أنها قد انفصلت من جسمها الأصلي.

- "يستعلق الأمر بجعل التفكير مجوّفاً"، أعادت ماجش كلامها. "لكي يمكن استبعاب الشكل فيها وتثبيت ختمها".

خطان متوازيان للصداقة، خطان متقاطعان للخصام.

Twitter: @alqareah

عرض إنكسيلوب الألواح التي فخرها على آدائم في المعبد ظهيرة اليوم التالي. تفحّص آدائم كل أخدود وشكل. قرأ. فهم من دون أن يفكر بأنه يفهم ما يقرأ.

- "خبز"، قال له، "أكل. نساء. عبيد. زيت. الرقم 1، الرقم 60. هذا مدهش. ينبغي أن تكون قد الهمتك سمكة الحكمة أوانيس من خلال الماء في مشغلك.

أطبق عينيه وأمال رأسه جانباً. أبصر عينا ماجش وهما تغمزان له.

- "الآلهة تترك آثارها في كل المواضع"، قال آدائم.

إقشعرّ فجأة. خفض من صوته وهمس الى إنكسيلوب.

- "هذا المساء مات أوفراكا، ساقي الملك".

حدّق إنكسيلوب مندهشاً نحو آدائم. هذا الأمر لم يسمع به. أنباء الموت في البلاط تنتشر بسرعة النار في الهشيم في المدينة، من الذي سيأخذ مكان الميّت ويشغل منصبه بكل ما فيه من امتيازات؟

- "كلاّ، أنت لم تسمع بذلك"، أضاف آدائم، "لأنّ الملك في حيرة. موت أوفراكا كان مفاجئاً وغير منتظر. مثل كبيرة الكاهنات كان شاباً وفجأة مات. ثم شققنا الجثة هذه الليلة لنعثر على سبب الموت".

إقشعر جلد آدائم مرة أخرى.

Twitter: @alqareah

- "هل عثرتم على شيء؟"، سأله إنكسيلوب.

- "كانت أمعاؤه مثل صورة لوجه خمبابا. الشعر، العيون، الأنف والفم. ما من شك في ذلك".

- "إذن لقد إنتقم الآن".

- "نعم"، أجاب آدائم، "جلجامش قتل صديقه خمبابا، الملك هو وريث خمبابا، والآن خمبابا قد قطن في جسد ساقيه. الملك طهّر نفسه، وأوفراكا سيحرق خارج سور المدينة".

على سور المعبد كان الحرس يسيرون جيئة وذهاباً.

- "ربما يشير لنا هذا أننا أيضاً ليس سوى طين خربشت الآلهة عليه. ربما تلاقت ألواحد مع موت أوفراكا لكي يمكننا إدراك ذلك".

- "إطرح ذلك مع الملك"، قال إنكسيلوب، "ربما سيهدئ الأمر من روعه".

- "أعطني ألواحك"، قال آدائم، "ليمكنه الاطلاع عليها، فلربما أفادت رقائمك المكتوبة في شيء".

لم يتمكن آدائم من النوم أيضاً بسبب هذه العلامات المضطربة. حدودها تخدشه، كل الأشياء التي رآها في حياته تتقافز أمامه، وخلف الأشياء تموت زوجته ونظرتها تتساءل: كيف سيمكنك خربشتي في الطين، الصما الذي جثم عليّ، الموت الذي التهم ذراعيّ وأفكاري؟

فكّر آدائم مجيباً لها: سأنقش علامتك في الطين، نظرتك التي في داخلي، رغم أنني لم أرك منذ زمن بعيد.

Twitter: @alqareah

نهض آدائم من سريره. التقط إبرة وقطعة من الشمع. رسم لاماشتو، كلب الشيطان، الذي يخطف أرواح النساء أثناء الوضع، رسم عيني زوجته، كبيرتين، مليئتين بهذه العتمة الصامتة المخيّمة عليه وترفض مغادرته، رسم خطّين من ماء للإبن الذي ولد، لأنك مازلت بالتأكيد حيّة في أناش، ثم رسم دائرتين فارغتين لما ينبغي أن يكون ولم يكن.

بعدها مضى الى سريره وحلم بأنه جرف طينيّ، ناعم ورطب، وكان يراها، مثلما وضعت في القبر، الرأس في جرة فخار كبيرة والساقان في جرة أخرى، وبين فوهتي الجرتين قطعة من ثوبها الأزرق. في الصباح التالي رسم على كتلة من الطين جرّتيها اللا نهائيتين بفوهتيهما المطبقتين على حياة من يموت.

Twitter: @alqareah

أحرقت جثة أوفراكا بسرعة، بهدوء، خارج أسوار المدينة. أقداحه وسيفه دفنت الى جانبه. سار كلّ شيء كما ينبغي أن يسير. لكن الملك كان مرتبعاً من وجه خمبابا المريع الذي يحدق من أمعاء أوفراكا.

تداول الملك الأمر هنا وهناك بين مستشاريه. لا ينبغي أن يكون هكذا. القمح مرتفع، براميل النبيذ وأنواني العسل مملوءة. ما من مجاعة في بلاده. أنصاب نانا من فضّة صلبة، ثيابه منسوجة من خيرة الأصواف. مع ذلك فالإضطرابات ينهش المدينة. الملك هو المدينة، وهو يستشعرها تنهش فيه.

بعث برسول الى آدائم وعاد إليه بالجواب، بأن آدائم يطلب الإذن للسماح للفخّار إنكسيلوب بالمثول بين يديه. هزّ الملك رأسه موافقاً. ماذا عليه أن يفعل غير ذلك؟ شيء ما يسوطه للخروج. لذلك هزّ رأسه ليسمح لإنكسيلوب بالمثول أمامه.

سار إنكسيلوب عبر المعبد نحو البوابة الخلفية التي تؤدي الى باحة القصر. وصل الى الجدران العالية المائلة المزخرفة بصور الأسود كحرّاس في محاريب الجدار. مشى فوق البلاط الحجريّ الأزرق الذي وضع ليستشعر من يسير خطواته الأخيرة الى الداخل أنه يسير فوق الماء. على الجانب الأخر من الباب،

Twitter: @alqareah

داخل صالة العرش، ينتصب ثور على جانبي المدخل، مقيدين في حلقة على الجدار. كانا ينخران ويطرقان الأرض بحوافرهما، فاستشعر إنكسيلوب أنفاسهما على عنقه. طلب منه أن يخلع حذاءه. أرضية صالة العرش مدثّرة بجلود النمور التي كانت تدغدغ بواطن قدميه فيما كان يحتضن لوائحه الطينية بين ذراعيه. توامض الضوء المنبعث من المشاعل على امتداد الجدار، وثمة رائحة تنبعث من الجلود والثيران.

كان الملك مسبطرّاً على عرشه المصنوع من خشب الأرزّ. الملكة تجلس مضطربة، غير منصتة لأحد، فيما كنت تحدّق متألمة الى الحيطان وتأمل أن يكون هذا هو الزائر الأخير لكي يمكنها الذهاب الى مقصورتها والاستلقاء هناك.

كان الملك ذا لحية طويلة مجعّدة، أزرق الرداء وثمّة أفعى ذهبية تلتفّ على ذراعيه وساقيه ونعلان من البرونز في قدميه. إنحنى إنكسيلوب بخشوع.

- "أبلغني آدائم أن لديك شيء تريد عرضه"، قال الملك.

هزّ إنكسيلوب رأسه موافقاً. كان يودّ لو أن آدائم قد قال أكثر.

- "إنها هذه العلامات"، قال له، "نستطيع أن نقول أكثر. آدائم يرى نجمة في الشاة، وخمبابا".

- "لا أعرف شيئاً عن خمبابا"، إعترض الملك.

- "كلا"، قال إنكسيلوب، "كلا، الأمر واضح، لكن ليس هذا ما أريد قوله. إنها علامات فقط. في الطين. نحن البشر من طين أيضاً، طين مكتوب عليه".

Twitter: @alqareah

لم يستطع مواصلة الكلام أكثر. مد يديه بالألواح الى الملك الذي تنواولها من أمامه وتطلع اليها، علامة بعد علامة. أدرك إنكسيلوب أن الملك لم يفهم شيئاً.

- "النجوم عي بالطبع نجوم"، أوضح إنكسيلوب، "والصحن الصغير يعني الخبز، والوجه ذو الفم المفتوح الى جانبه يعني الأكل".

تلعثم إنكسيلوب. لم يمكنه توضيح العلامات للملك الذي كان يديرها ويقلبها. لكنه بما أنّ آدائم هو الذي أرسل إنكسيلوب فقد سأله الملك من جديد.

- "هل هذه رسوم لأشياء تلك التي أراها، هل يمكنني فهمها على هذه الشاكلة؟".

- "كلا"، قال إنكسيلوب، "إنها ليست رسوماً. ليست الأشياء التي يراها المرء. أنها لو أمكن التعبير مثل الأشياء التي يراها الإنسان وهو مغمض العينين. ربما يمكن أن نقول أنها رسم للكلمة، لكن الكلمة لا يمكن رؤيتها بالتأكيد. ليس بواسطة العينين".

هزّ الملك رأسه بحيرة. على اللوح المسطح الذي يمسكه بيده ثمّة خرابيش تشبه رسوم الأطفال العشوائية، لا شيء آخر. لكنّ آدائم كما يبدو يهدف الى شيء ما، فقد أخبر هذا الرجل بشأن خمبابا.

- "استمر بما تفعله" قال له الملك متردّداً. كان يودّ العثور على سبب يجعله يمنع الرسوم الخرقاء لكنه لم يعثر على شيء.

Twitter: @alqareah

"أرني شيئاً في وم آخر، ربما استطعت أن ترسم الاشياء بشكل أوضح".

- "بالتأكيد"، أجاب إنكسيلوب ثمّ تذكّر ما أخبره آدائم أن يطلب.

- "إذن فالملك يوافق كذلك على عرض هذه الألواح في المعبد؟".

نظر الملك باحتقار اليه. الجميع في المعبد يمكنهم الرسم. لم يستطع تخيل سوى ضحك الآخرين على هذا الرجل وخطوطه الخرقاء.

- "نعم"، قال الملك، "إعرضها فقط".

ثمّ رفع راية إينانا كعلامة على أن المحادثة انتهت. انسحب إنكسيلوب الى الوراء خارج صالة العرش، عبر أنفاس الثيران، ارتدى حذاءه ومشى الى الوراء فوق الزجاج الأزرق، وليس قبل نهاية باحة القصر استدار من جديد.

- "ماذا قال لك؟"، سأله آدائم بلهفة. كان يقف بانتظاره عند بوابة.

- "لم يفهم شيئاً".

هزّ آدائم رأسه.

- "كان علي أن أتكهن بذلك. لكن هل سمح لك بعرضها؟"".

- "نعم"، قال إنكسيلوب، "لكنه لم يفهم ما الذي سأعرضه".

- "دعنا نمنحه علامات لأشياء لا يمكنه رؤيتها. إصنع علامة

Twitter: @alqareah

للريح. واحدة لعداوة الريحِ مع سور المدينة. واحدة لصداقة الريح مع المرأة".

- "نعم"، قال إنكسيلوب، "سأفعل ذلك".

تمنى في قرارة قلبه أن ينسى آدائم ما طلب منه. لأنّ صداقة الريح مع المرأة ليس أمراً يتمنى إنكسيلوب صونه.

Twitter: @alqareah

تقلّبت ماجش على السرير. الريح تعصف، والطفل يئن باضطراب. الريح تناديها.

- "من أنتِ أيتها الريح؟"، سألت ماجش بصوت عال.

تأتي الريح مجبرة، مدمدمة. الرمل الذي تجلبه معها يمكث في أشعة رفيعة عبر ثقوب السقف ومصاريع النوافذ.

- "إضطجعي يا ماجش"، قالت الريح، "لا تنهضي بغض النظر عما تسمعين، وابقي في فراشك".

ثمة دمدمة تجتاح المنزل في إحدى الغرف تحت ماجش. أصوات لا تعرف لمن هي تصطخب. الأشياء تقع. تسمع صوت معدن. تسحب ماجش ملاءة من تحت سريرها وتضع طرفها بين أسنانها لكي تمنع الصرخات من مغادرة فمها. وضعت الطفل على صدرها، بعد ذلك حلِّ الهدوء. جسدها كان أذناً.

بيت على الجانب الآخر من الجادة يحترق. صوت صرخة متناغمة تنبعث من الرجال الذين يسحبون الماء من النهر. جزئ من جسد ماجش تحوّل الى هدب يصغي الى أي مدى كانت نيران الشجرة المحترقة قريبة من منزلها. الريح تهرس نفسها في جوانب البيت، والرمل يصنع تراكمات كبيرة فوق الأرضية. لكن هذا هو

Twitter: @alqareah

اقلّ ما يكون.

- "إضطجعي يا ماجش"، أمرتها الريح.

خطوات ثقيلة تسمع في الغرفة التي تحتها. شيء أو أحد ما يطرق على الباب، ثم أصوات عديدة تأمر صارخة. إنكسيلوب يعترض بغضب، و ماجش تنهض من مكانها لتسير باتجاه زوجها. الطفل يترك ثديها ويفتح فمه ليصرخ، ماجش تتقيأ على الأرضية من الرعب.

- "اضطجعي يا ماجش"، أمرتها الريح.

ماجش تضطجع وتضغط الطفل على ثديها، تضع مزيداً من القماش في فمها وتعض بقوّة.

سمعت صوت خبطتين قصيرتين، ثم أطبق الباب. أرهفت ماجش السمع، حاولت أن تجعله ينزلق هابطاً السلالم لكن لا شيء هناك سوى الهدوء فظلّت مضطجعة في مكانها تنتظر. اضطجعت الريح على الأرض مثل ذئب كان يعدو عبر شوارع المدينة ثم شعر بالتعب، حلّت السكينة على الريح. النيران أطفئت وصمتت صرخات الرجال.

نهضت ماجش من مكانها. الطفل تخلى عن الثدي واستغرق في نوم ثقيل وإحدى يديه منقبضة تحت خده. هبطت السلالم الى تحت. في الغرفة الكبيرة أمام الباب المفضي الى الجادة كان إنكسيلوب جالساً وظهره على الحائط. وجهه كان أبيض. عيناه منتفختان ومحمرّتان. ظنّت للوهلة الأولى أنه كان ميتاً. لكن جفنيه

Twitter: @alqareah

الأبيضين انزلقا الى الأعلى والأسفل فوق عينيه الحمراوتين. أمامه تماماً كان يقف جنديان مرتديان زيّ الجيش البابليّ الملوّن وهما يحدّقان بوجه جامد إليه.

Twitter: @alqareah

كان أناش يضطجع في حوض الفخار المليء بالماء وينظر الى الضوء الذي كان يتسلل من النوافذ النجمية الصغيرة في أعلى الجدار مانحة ضوءاً مؤطراً، مفعماً بالظلال في الغرفة. كان يفكر بأن أحداً ما ينتظره مثل ظلّ أخضر مليء بالضوء. لم يكن يعرف ماهيته لكنه يحاول تشخيصه بتفكيره. ثمة لبّ في طيّ جوز الأيام، ينبغي على الأيام أن تكسر، وفي داخلها يوجد الجوهر، مفعماً بذاته وبما لا تستطيع القشرة إخفاؤه.

كان يفكّر فيما إذا كان سيأتي إذا نهض في حوض الحمام، لكنه حين نهض لم يحدث أيّ شيء. وحين خرج من الماء أضحى محيطه أكثر صلابة، أشدّ تحديداً، والكلمات التي كان يسمعها من حوله تنتصب مثل معاول مسننة. كان مثل علامة وسمت حديثاً. بالكلمات تتبع النظرات وعرق الناس الآخرين، والاشمئزاز والعصبية تدفعانه شخصياً الى التعرّق، والرائحة التي تفوح من جانبيه، ظهره، راحتيه توجب عليه العودة الى الماء من جديد. صفق بيديه، اصطدمت موجتان مع بعضهما، قدم خادم بالماء الحار الى الحمام الذي نظّف بالفرشاة والصودا فيما كان خارجه، وخادم آخر فتش الحمام بحثاً عن الحشرات الصغيرة والكبيرة، فماذا يمكن للحيوانات أن تفعل هناك؟ أمر لا يحتمل.

كان جسده من نسيج آخر غير حيوانيّ. تأمّل أناش في رضا عضلات ساقيه التي وترها تحت الماء. عضلاته مفتولة مثل حبال

Twitter: @alqareah

متماسكة تحت الجلد. إنه يعرف أن الشبان الآخرين غاضبون منه لأنهم يعدون الآن خلف طرائدهم ورماحهم في أياديهم بينما يستلقي أناش في مائه، إنه هو الذي تلتفّ عضلات ساقيه منتفخة تحت الجلد، هو الذي بامكانه الضغط على سترته الى ان تنفتق. الشبان الآخرون يتحدثون عن قوة عضلاتهم المفتولة، وكيف كانوا يتفجرون عبر المرأة مثلما تتفجر الطاقة في صيد الصباح الباكر، وتفاخرون مبرزين عضلات أيديهم، سيقانهم، أفخاذهم، بطونهم، متلمّسين بعضهم البعض وهم يطلقون التعليقات. وبالنسبة لأناش الذي كانت رماح كلماتهم مصوبة نحوه فقد كان يفخر بقدرته على توتير هذه الحبال، بينما كان عضوه الذكري ذهبياً، جميلاً، لكن بلا حول ولا قوة في صحبة النساء.

صفق بيديه ثلاث مرات بقوة. فتح الباب سامس الذي كان واقفاً ينتظر أوامره.

- ما فائدة وقوفك، زمجر أناش، لا يمكنني الاستلقاء هنا طوال اليوم من دون تسلية.دع سن - ناصر تقدم.

ترك سامس الباب مفتوحاً حينما ذهب فلفح أناش تيار الهواء، لكنه غطس تحت الماء. هذه المتعة يجب أن يحصل أناش عليها. بعدها قدمت سن - ناصر بخطواتها المسترخية، مررت يدها على الجدار، وحين وصلت الى فرجة الباب تجرأت وجالت ببصرها الى الداخل. تفحصها أناش فيما كانت يده تنزلق على حافة حوض الماء، والى جانب طرف الحوض الصغير جلست على وسادة فوق الأرضية. تفحصها بلا حياء وكأنه يتفحص شخصاً أعمى. كانت ذات وجه جميل، شعرها الأسود اللامع مضفور على شكل حلقات

Twitter: @alqareah

حول الرأس. كان هنالك رباط حول عينيها لكنها انتزعته قبل أن تشرع بالعزف.

ثم أنشدت سن – ناصر أغنية إينانا الى حبيبها الراعي تموز الذي قال نعم لحرث فرج الربّة.

Twitter: @alqareah

جلس إنكسيلوب نصف مستيقظ في السرير، متكئاً بظهره على وسادة. الطبيبة كانت هنا. آدائم كان قد جاء أيضاً. ماجيش ضحت بتيس أمام بيت الالهة. لا أحد أرتاب بشيء. لا أحد سأل عن الجنديين البابليين المجازين. هذا الأمر يحدث كثيراً إنهما هاربان من الخدمة. سقطا في النهر. لقد اشتركا بمعركة غير معلنة. قصة تتعاقب بعد أخرى في رأس ماجيش.

اضطربت حينما سمعت قرعات على الباب، لكنها كانت الطبيبة، ثم قدم آدائم وأصدقاء إنكسيلوب محملين بالفاكهة والنبيذ.

دهنت الطبيبة طبقة سميكة من مرهم أسود على الجرح الموجود في رأس إنكسيلوب ولفه بقطعة من الشاش. كانت تأتي ثلاث مرات اليوم لتغيير الضماد. أصيب إنكسيلوب بالحمى، الألوان والأشياء أضحت تتحرك في الغرفة، كان يتعرق ويئنّ، والطبيبة تدفع بورقتين رفيعتين طويلتين من ورق الأشجار في فمه.

في الشوارع ثمة بلاغ ينادى به. آدائم وماجيش يصغيان للنداء؟

– ماذا يقول؟ هتف إنكسيلوب من السرير وحاول أن يقف على قدميه، لكنه لم يستطع وانهار عائداً الى مكانه.

– سيكون هنالك اجتماع، قالت ماجيش. الملك ومستشاروه يدعون للحرب. ستتوجه أور لمحاربة آراتا.

– آراتا؟ تمتم إنكسيلوب من على السرير. سيكون ذلك مغامرة خطيرة.

Twitter: @alqareah

- آراتا، قال آدائم، لا يوجد حي رآها من قبل. لسنا نعرف إن كانت موجودة فعلاً أم لا.

- ثمة لقاء في مجلس المستشارين غداً، قالت ماجيش - على جميع المواطنين أن يكونوا في أماكنهم غداً.

هتف إنكسيلوب:

- يجب أن أكون هناك. عليكم أن تفهموا ان ذلك ينبغي ألا يحدث. ينبغي أن أدلي برأيي. لا أريد أن يجول الجنود في المدينة دون أن يفعلوا شيئاً.

Twitter: @alqareah

ميريته بريدس هيله

كاتبة وشاعرة دنماركية ولدت عام 1965. كانت باكورة أعمالها مجموعة قصص قصيرة أصدرتها عام 1990 توالت بعدها أعمال شعرية وروائية عديدة، منها «الجنون السعيد»، «آه يا روميو»، و«صيد في نهر الحياة»، كما أصدرت مع زوجها الشاعر والروائي مورتن سونجورد سلسلة روايات بوليسية مكتوبة بشكل مشترك أصدراها بإسم مستعار.

تعد رواية «صيد في نهر الحياة» أهم أعمالها الروائية، إذ تمخر فيها بأزمان متعدّدة من الحاضر الدنماركي إلى الماضي السومريّ في محاولة منها لاستنطاق الزمن الذي اخترعت فيه الكتابة وذلك في نسيج شعريّ شفاف يمتزج فيه الخيالي بالواقعي.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN 978-614-01-0430-3
9 786140 104303

تصميم الغلاف: سامح خلف